

الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام

للإمام العلامة المحدث
عبد الله بن الصديق الغماري
المتوفى سنة 1413 هـ

دار الرشاد الحديثة
الدار البيضاء - المغرب


بسم الله الرحمن الرحيم

- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.
- ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.
- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

- عن عمر رضي الله عنه، قال: بينما نحن جُلُوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخديه -تأدبا كهيئة المتعلم- وقال: يا مُحمد أخبرني عن الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتُـؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إِليه سبيلاً»، قال: صدقت؛ قال: فعجبنا له يسأله ويُصدقه. قال: فأَخْبِرني عن الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. قال: فأَخْبِرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أن تلد الأَمَةُ ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان.» فانطلق الرجل فلبثت ملياً ثم قال: «يا عمر، أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا محمد النبي الأمين

وعلى آله وصحبه الأكرمين

يا لابساً خِرقةَ التصوّفِ ما

عليك فيما لبستَه حَرَجُ

إن كنتَ من عُصبةٍ منزَّهة

قد عرفوا ذاتهم وما مرجوا

قاموا على عفَّةٍ ومسغبة

تهلكُ حتى أتاهم الفرجُ

تحصَّنوا بالعليِّ حين علوا

وخصهم بالشهودِ إذ عَرَجوا

فانظر إلى حالهم وحليتهم

وحصنِ تقديسهالذي ولجوا

وادخل من الموضع الذي دخلوا

تخرجْ بالحليةِ التي خرجوا

وبعد،

فقد كثر كلام الناس في علم التصوف وتشعبت آراؤهم حوله وتخاصموا من أجله، بين مؤيد ومعترض ومعتقد ومنتقد، خاصة بعد انتشار حملة العداء عليه وعلى أهله، وتفنن الخصوم في تشويه صورته وتحقير طريقته، وفُتحت أفواه العامة والغوغاء للطعن في الأولياء الأبرار والأصفياء الأخيار، حسبما صور لهم المنكرون من أنه زندقة وخرافة وزيادة في الدين، إضافة إلى ما عكر صفوه من انتماء الجهلة إليه وانتساب السوقة إلى طريقه، مما زاد الطين بلة، فصار علم التصوف حصير عداء من جهة المنكرين الجاهلين والمنتسبين المرتزقين، وهو براء من كيد الطائفتين وفتنة الفرقين[1].

ولأجل أن تتضح حقيقة علم التصوف الشريف وبيان فضيلة طريقه المنيف، آثرنا أن نعيد تحقيق هذه الرسالة المباركة النافعة الدامغة في تأصيل هذا العلم الجليل وبيان مذاهب علماء الإسلام فيه وأقوالهم في رجاله، مما يزيح أي إشكال حوله وحولهم ويدفع أي شبهة فيه وعنهم؛ وهو كتاب "الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام" للإمام الشيخ المحقق سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري المتوفى عام 1413 هـ، رحمه الله وأرضاه. ففيه غنية عن غيره وزيادة لم توجد في كتاب سواه مع سلاسة الأسلوب وحسن التبويب وقوة التدليل؛ فنسأل الله أن ينفع به ويرحم مؤلفه والحمد لله رب العالمين.

عدنان بن عبد الله زهار

الجديدة –المغرب–

adnanezouhar@gmail.com

---

1 انظر مقالتنا التي ذيلنا بها هذه الرسالة الجامعة المانعة.

التعريف بالمؤلف

هو الشيخ السيد أبو الفضل عبد الله ابن العلاَّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن الولي الكبير سيدي محمد الصديق، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن المثنى ابن سيدنا الحسن ابن الإمام علي رضي الله عنه.

وُلد رحمه الله تعالى في آخر يوم من جمادى الآخرة سنة 1328هـ - 1910ر بثغر طنجة، ودرس معظم العلوم الإسلامية بالمغرب، بعضها بطنجة وأكثرها بالقرويين بمدينة فاس، إلى أن انتقل إلى الأزهر الشريف، وسرعان ما سطع نجمه عالما مرجوعا إليه في علوم الحديث والأصول والفقه.

فصنف مصنفات عددية ومفيدة في شتى العلوم الشرعية، ثم عاد إلى المغرب بعد محنة طويلة بسجون مصر، وقد ترجم لنفسه في كتابه الشيق "سبيل التوفيق بترجمة عبد الله ابن الصديق".

ولا زال يدرس بالزاوية الصديقية بمدينة طنجة ويصنف ويدعو إلى الدين إلى أن توفته المنية شهر سعبت من عام 1413 هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي منح أولياءه جزيل عطائه، ووهب أصفياءه جليل حِبائه، تجّلى لهم بمظهرٍ من مظاهر أسمائه، فتاهت عقولُهم في مشاهدة عظمته وكبريائه، وطافت أرواحهم هائمـةً في قُـدْسِ سنائه، وأفناهم عن أنفسهم فلم يشاهدوا سواه في أرضه وسمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ندخرها ليوم لقائه، ونستوجب بها جميل جزائـه، وأشـهد أن سـيدنا محمـداً عبده ورسوله أفضل رسله وأنبيائه، أفاض عليه مولاه من أنواع العلوم والمعارف ما تنوء الجبال الشم بحمل أعبائه، صلى الله عليه وسلّم صلاةً وسلاماً خالدَيْن مع خلود الـدهر، بـاقيَيْن بعـد فنائه، ورضي الله عن آله الكرام حماة الدين، الدافعين عنه بالسـيف والبرهـان حمـلات أعدائـه، وعن أصحابه الفخام، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى قيام الساعة وساعة القيام.

أما بعد،

فإن التصوف كبيرٌ قدره، جليلٌ خطره، عظيمٌ وقعه، عميـقٌ نفعـه، أنـواره لامعـة، وأثـماره يانعة، واديه قريعٌ خصيب، وناديه يندو لقاصـديه مـن كـل خـير بنصـيب، يزكـي الـنَّفس مـن الدَّنَس، ويُطهِّرُ الأنفاسَ من الأرجاس، ويُرقي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويُوصِلُ الإنسانَ إلى مرضاة الرحمان.

تعاريف التصوف

وهو – إلى جانب هذا – ركن من أركان الـدين وجـزء مـتممٌ لمقامـات اليقـين، خلاصـته: تسليم الأمور كلِّها لله، والالتجاء في كل الشؤون إليه، مع الرضى بالمقـدور، مـن غـير إهمـال في واجب أو مقاربـة محظـور. كثُـرت أقـوال العلـماء في تعريفـه، واختلفـت أنظـارهم في تحديـده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه ومسماه، يُنبئ عن سمو غايته ومرماه، فقيل: التصوف: الجِدُّ في السلوك إلى ملك الملوك، وقيل: التصـوف: الموافقـة للحـق والمفارقـة للخَلـق. وقيـل: التصوف ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضـيلة. وقيـل: التصـوف: الرغبـة إلى المحبـوب، في درك المطلوب. وقيل: التصوف: حفظ الوفاء وترك الجفاء. إلى غير هذا من الأقوال التـي تبلـغ نحـو ألفٍ حكاها الحافظ الصوفيّ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه " حِليةُ الأولياء".

وسُئل الإمام أبو القاسم الجُنيد –سيد الطائفة– عن التصوف، فقال: "تصـفية القلـب عـن موافقة البَريّة، ومفارقة أخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشريّة، ومجانبـة الـدواعي النفسـانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلُق بالعلوم الحقيقيـة، واسـتعمال مـا هـو أولى عـلى الأبديّـة، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتّباع الرسـول صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في الشريعة"[1].اهـ

1 "التعرف لمذهب التصوف" للكلاباذي 25/1

ولعل هذا أبلغ ما قيل في التصوف وكشف حقيقته، وإن كانت الأقـوال السـابقة مختلفـة في اللفظ والمبنى، فهي متفقة في الغاية والمعنى، وإنما عبر كل قائل بحسب مَدرَكِه ومشرَبِه.

تعريف الصوفي

وعلى نحو اختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفيّ واشتقاقه، فقال الإمام أبو عـلي الروذباري: وقد سُئل عن الصوفي: "من لبس الصوفَ على الصَفاء، وأطعمَ الهوى ذوقَ الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم".اهـ[1]

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري: "الصوفيّ من صفا عـن الكَـدَر وامـتلأ مـن الفكـرِ وانقطعَ إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر"اهـ[2]، وأنشد الإمام تقي الدين السُبكي:

تنازع الناس في الصـوفي واختلفـوا   قـدما وظنـوه مشـتقا مـن

1 المصدر السابق.

2 المصدر السابق أيضا

الصـوفِ

ولستُ أنحل هذا الاسـم غـير فتى صـافى فصـوفي حتـى لقـب

الصوفي

وهذان البيتان لأبي الفتح البستي.

وقال العلامة الشيخ محمد ميارة المالكي في شرح "المرشد المعين"[1]: "وفي اشتقاق التصـوّف أقوال، إذ حاصله اتصاف بالمحامد وترك للأوصاف المذمومة وقيل: من الصفاء".

وقال المحقق أبو حفص الفاسي المالكي: "ظهر لي أنه منسوب إلى الصوف، لأنه في الغالـب شعاره ودثاره، ولأن هذا اللفظ –يعني لفظ صوفي– مشتمل عـلى ثلاثـة أحـرف منقطعـة مـن ثلاث كلمات دالة على ثلاث معان هي أوصافه المختصة به، فالصـاد مـن الصـفاء، والـواو مـن الوفاء، والفاء من الفناء".

قال العلامة ابن الحاج[2]:"وقد أشرت إلى ذلك في ثلاثة أبيات، فقلت:

صفا منهل الصوفي عن عللِ الهوى فما شاب ذاك الورد من نفسه حظ

ووفى بعهد الحب إذ لم يكـن لــه إلى غير من يهوى التفات ولا لحظ

مَحَت آيــةَ الإظلامِ شمسُ نهـارهِ وقــد ذهبت منه الإشارةُ واللفـظ

---

1 "شرح المرشد المعين" ص 321.

2 "حاشية ابن الحاج على ميارة الكبير" ص321.

أصول التصوف: الكتاب والسنة

ثم إن التصوف مبنيٌّ على الكتاب والسنة، لا يخرج عنهما قيد أُنملة، قال الإمام الجُنيد: "علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة".اهـ وقال أيضا: "الطريق إلى الله تعالى مسدود إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم."اهـ

وقال سهل التستري –أحد أئمة القوم–: "أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق".اهـ

وقال أبو العابس الملثم –أحد كبار الصوفية–: "لم تكن الأقطاب أقطاباً، والأوتاد أوتاداً، والأولياء أولياءً، إلا بتعظيمهم رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، ومعرفتهم به، وإجلالهم لشريعته وقيامهم بآدابه".[1]اهـ

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي الغُماري: "مَن دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو مُدّعى".اهـ

وقال: "ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2]. وقال أيضا: "ما ثَم كرامة أعظم من كرامة الإيمان، ومتابعة السُنّة، فمن أُعطيهما وجعل يشتاق

1 يرجع إلى كتاب "التعرف" 25/1 وما بعدها.

2 السجدة:24

إلى غيرهما فهو عبد مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ في العلم والصواب، كمن أُكرمَ بشهادةِ الملك فاشتاق إلى سياسة الدواب".

وقال تاج الدين السُبكي في "جمع الجوامع" –وهو من الكتب المقررة في الأزهر– : "ونرى أن طريق الشيخ الجُنيد وصَحبِه طريقٌ مقوم". قال شارحه جلال المحلي: "فإنه خال من البدع، دائر على التسليم والتفويض والتبري من النفس..".[1]

وقال التاج السُبكي أيضا في كتابه "مُعيد النعم ومُبيد النقم": "الصوفية حيّاهم الله وبيَّاهم، وجمعنا في الجنة نحن وإيّاهم، وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، والصحيح أنهم المُعرِضون عن الدنيا، المُشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة. ومن ثَمَّ قال الجُنيد: التصوّف استعمال كل خُلُقٍ سني، وترك كلُ خُلُقٍ دني. وقال أبو بكر الشبلي –تلميذ الجُنيد– : التصوّف ضبطُ حواسك، ومراعاة أنفاسك. وقال ذو النون المصري: الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق. وقال علي بن بندار –تلميذ الجُنيد– : التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهراً وباطناً، وهذه عبارات متقاربة. والحاصل: أنهم أهل الله وخاصته، الذين تُرتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم.

وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه – صلوات الله عليهم وسلامه– جعل الله قلوبهم معادن أسراره، واختصهم بين الأمة بطوالع

---

1 "جمع الجوامع" مع "حاشية العطار على المحلي" 491/2.

أنواره، فهُمُ الغياث للخَلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق. ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة والعفو والصفح وعدم المؤاخذة".اهـ[1]

الرد على من ادعى أن التصوف رهبانية ومجوسية

وقد كثُر في هذا الزمان الذي طغى شرُّه على خيره، من يُنكر التصوف ويزعُم أنه دخيلٌ على الإسلام، جاء به مسلمة الكتابيين والبوذيين ومن على شاكلتهم، وأن الصوفية أصحاب بِدعٍ وخرافات، إلى غير ذلك من الدعاوي التي يأباها العقل، ويُكذّبها النقل، فانتُدبنا لإبطالها بهذا الكتاب الذي نرجو الثواب عليه من الله تعالى، والتزمنا فيه إيراد الأدلة من الكتاب والسنّة، وقصدنا إيضاح الدلالة بعبارةٍ مبسطةٍ هادئةٍ خاليةٍ من التعقيد، مع الاستشهاد بكلام أئمة المسلمين وعلمائهم، ومن الله نستمد المعونة والتوفيق.

كلام الولي الصالح سيدي محمد بن الصديق في التصوف

في فتوى لمولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه _أجاب بها من سأله عن أول من أسس الطريقة؟ وهل تأسيسها بوحيٍ سماوي؟_ جاء فيها: "وأما أول من أسس الطريقة؟ وهل تأسيسها بوحي؟... الخ فلْتعلمْ أن الطريقة أسسها الوحيُ السماويُّ في جملة ما أُسِسَ في الدين المُحمديّ، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بيّنها واحداً واحداً ديناً، فقال «هذا جبريل جاء يعلمكم

---

1 "معيد النعم ومبيد النقم" ص 119 وما بعدها.

دينكم»[1] فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه، هو مقام الإحسان، بعد تصحيح الإسلام والإيمان، ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضاً لمحرزها كمال الدين، فإنه –كما في الحديث– عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك، لتركه ركنا من أركانه، ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول في الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوباً عينياً، واستدلوا على الوجوب بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً.

ولسنا بصدد بيان ذلك الآن. وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية، فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضى والتسليم والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة ومخالفة الهوى والنفس، وتكلم على النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة، وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين، وغير هذا مما يتكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضي الله عنهم، فاعرِف وتأمل. .

وأما قولك: هل لما أُسست الطريقة؟.. الخ فجوابه يُعلم مما قبله، فإنها إذا كانت من الدين –بل هي أشرف أركانه– وكانت بوحي كما قلناه، وكان الصحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم تواتراً، من المسارعة إلى امتثال أمر الله، كانوا بالضرورة أول داخلٍ فيها، وعاملٍ بمقتضاها، وذائقٍ لأسرارها وثمراتها، ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهدِ في الدنيا، والمجاهدةِ لأنفسهم، ومحبة الله ورسوله، والدار الآخرة، والصبر والإيثار، والرضى والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله، وتُوصلُ إلى قربِهما، وهى المُعَبرُ عنها بالتصوف والطريقة. وكما كانوا –رضي الله عنهم– على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها، وإن كانوا دونهم

---

1 رواه مسلم في "صحيحه" ح 9 عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فيها، وكذلك كان أتباع التابعين. وهلُمَّ جراً إلى أن ظهرت البدع، وتأخرت الأعمال، وتنافس الناس في الدنيا، وحييت النفوس بعد موتها، فتأخرت بذلك أنوار القلوب، ووقع ما وقع في الدين، وكادت الحقائق تنقلب، وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولى من الهجرة، ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد سنة إلى أن وصل ذلك إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين. فانتُدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف، فقامت طائفة منهم لحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده، وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله.

فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم -رضي الله عنهم- وكان من الطائفة الثانية الأشعري وأشياخه وأصحابه، وكان من الطائفة الثالثة الجُنيد وأشياخه وأصحابه. فعلى هذا ليس الجُنيد هو المؤسس للطريقة، لما ذكرناه من أنها بوحي إلهي وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها، ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر. ولهذا السبب نُسبت العقائد للأشعري، والفقه للأئمة الأربعة، مع أن الجميع بوحي من الله تعالى".اهـ

وهذا تحقيق نفيس بالغ النهاية في الحُسن والإيجاز، ما تُرك لمنصف قولاً. وهذه أحاديث في تأييد مذهب الصوفية، مشفوعة بما يوضح معناها، ويبين وجه الدلالة منها على ما تقتضيه القواعد الحديثية والأصولية.

الحديث الأول

الإحسان – المراقبة – المشاهدة

عن عمر رضي الله عنه، قال: بينما نحن جُلُوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخديه -تأدبا كهيئة المتعلم- وقال: يا مُحمد أخبرني عن الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إِليه سبيلاً»، قال: صدقت؛ قال: فعجبنا له يسأله ويُصدقه. قال: فأَخْبِرني عن الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. قال: فأَخْبِرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أن تلد الأَمَةُ ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان.» فانطلق الرجل فلبثت ملياً ثم قال: «يا عمر، أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.» رواه مسلم في "صحيحه"[1]، ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة[2]، وله ألفاظ وطرق، وهو حديث مستفيض.

قال الهروي في "منازل السائرين"[3]: "هذا الحديث إِشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة".اهـ

قال شارحه: لأن أصل هذه الطريقة الخاصة كمالُ المعرفة ودوام المراقبة للحق سبحانه في الحركات والسكنات، بل في الأنفاس واللحظات، حتى يستولي سلطان الحق على القلوب،

---

1 "صحيح مسلم" ح 9.

2 "صحيح البخاري" ح 50، "صحيح مسلم" ح 90.

3 "منازل السائرين" ص 9.

فيضمَحل ما تعلقت به أو سكنت إِليه من الأحوال والخطوب. فالإحسان يشتمل على مقامين: المراقبة ثم المشاهدة، والحديث بدأ بالمشاهدة إِشارة إِلى علوّها وسُموّها، وأنها المقصد الأهم، أما في السلوك والتَرَقّي فيكون البدءُ بالمراقبة، لأن دوامها يـورث المشـاهدة، ولهـذا لما أراد الجُنيـد الدخول في الطريق وذهب إِلى خاله وأستاذه السري السقطي يفضي إِليه برغبته، قال له: يـا بنـي إِني ألقنك ثلاث كلمات، إِذا أردت أن تنام من الليل فقل عند نومك: الله معي، الله ناظر إِليَّ، الله شاهد عليَّ، قال الجُنيد: فواظبت عليها نحو شهر، ثم قال لي أستاذي: يا بُني إِذا كـان الله معـك وناظر إِليك وشاهد عليك، فهل يصح أن تعصيه؟ قال الجُنيد: فنفعني الله بهذه الكلمات طـوال حياتي، كلما هَمَمت بمعصيةٍ تذكرتها فما عصيت الله قط. فانظر كيف لقَّنَ السري تلميـذَه الجُنيـد مقام المراقبة لأنه يُوصل إِلى المشاهدة القلبية، أما المشاهدة البصرية فهي في الـدنيا خاصـة بنبينـا صلى الله عليه وآله وسلم، لم تُعطَ لغيره؛ قال ابن عباس: إن الله أعطى الخُلة لإبراهيم، والكـلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي "صحيح مسلم" في حديث الدجّال وأنه يقول للناس: أنا ربكـم قـال النبـي صـلى الله عليه وآله وسلم: «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[1] .

وسُئل الإمام مالك لِمَ لَمْ يرَ المؤمنون ربهم في الدنيا وإِنما يرونه في الآخرة؟ فأجـاب بـأنهم في الدنيا فانون، والفاني لا يرى الباقي، وفي الآخرة أعطوا أبصاراً باقية، فرأوا الباقي بالباقي.

ولهذه المناسبة أذكر حادثة وقعت في بغداد، فقد رُفـع إِلى الخليفـة أن أحـد مشـايخ الطريـق ادعى أنه رأى الله ببصره وقامت عليه البينة، فأمر بقتله.

---

1 "صحيح مسلم" ح 169.

فعلم القطب الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه –وهو حنبلي المذهب صوفي المشرب– فذهب إِلى الخليفة، وقال له: إِن هذا الشيخ ضاقت عنه العبارة فصدر عنه ما لا يقصد، فقال الخليفة: وماذا يقصد؟ فقال الشيخ عبد القادر: إِنه شاهد الله ببصيرته، فانعكس نور بصيرته على بصره فشاهد ذلك النور، فصدر عنه ما سمعتموه. فقال ذلك الشيخ: والله ما أردتُ إِلا هذا، وصدر الحكم ببراءته، وسلامة عقيدته. وهكذا أغلب الألفاظ المشكلة المنقولة عن بعض الصوفية، لها محامل صحيحة، ووجوه من التأويل حسنة ولكن المعترضين عليهم مُغرِضون.

الحديث الثاني

محاربة الله لمن عادى أولياءَه. المجاهدة. الفناء في الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إِليَّ عبدي بشيء أحب إِليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إِليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإِذا أحببته كنت سَمْعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه» رواه البخاري في "صحيحه"[1]، وله طرق عن عائشة وأبي أُمامة وعلي وأنس ومعاذ وحذيفة[2].

1 "صحيح البخاري" ح 6137 عن أبي هريرة رضي الله عنه.

2 أما حديث عائشة فرواه عنها الإمام أحمد في "المسند" 265/6.

وأما حديث أبي أمامة فأخرجه الطبراني في "الكبير" 221/8.

في هذا الحديث بيان مبدأ طريق الصوفية ونهايته، ذلك أنهم يبدأون بالمجاهدة، ولا يزالـون يجاهدون أنفسهم، ويجتهدون في تطهير قلوبهم مِنْ كل ما يُباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يُقرّب إِليه من الأقوال والأعمال والأحوال، ولزوم الإقبال عليه، ودوام المُثول بين يديه، في كل وقـت وعلى كل حال بحسب الإمكان حتى يصلوا إِلى مقام الفناء، ومن وصل منهم إِلى هذا المقام كان محبوباً ملحوظاً، ومربوباً محفوظاً، فنى عن نفسه، وبقي بربه، فكان الله وليَّ أمـره، وحـافظ سِره، فهو لذلك سمعُه وبصره ويده ورجله، أي متولي شؤونه كلها.

الحديث الثالث

علم الظاهر والباطن

عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أن موسى قال للخضر –عليهما السلام–: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْـدًا قَـالَ إِنَّـكَ لَـنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِـيَ صَبْرًا﴾[1] يا موسى إِني على علم من علمِ الله علمنيه لا ينبغـي لـك أن تعلمـه، وأنـت عـلى علـمٍ عَلَّمَكَ اللهُ لا ينبغي لي أن أعْـلَمه، أي جميعه، وكذا قوله: لا ينبغي لك أن تعلمه، –أي جميعـه–. قال الحافظ ابن حجر في "شرح البخاري": "وتقدير ذلك معتبر، لأن الخضر كـان يعـرف مِـنَ

وأما حديث علي فأخرجه الإسماعيلي في "مسند" علي.

وحديث أنس أخرجه الطبراني في "الأوسط" 192/1.

وحديث معاذ أخرجه ابن ماجه في "سننه" ح 3989.

وحديث حذيفة أخرجه الطبراني في "الكبير" 152/3 مختصرا.

قلت: ورواه عن ابن عباس أيضا الطبراني في "الكبير" 145/12.

1 الكهف:67

الحُكم الظاهر ما لا غنى للمكلف عنه، وموسى كان يعرف مِنَ الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي[1]".اهـ

وهذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة من طرق[2]، وفيه إِثبات علم الباطن الذي يقول به الصوفية، ولهذا قال الجمهور: إِن الخضر نبيٌّ[3]، وكان علمه معرفة بواطن أُوحيت إِليه، وعلمُ موسى الحكم بالظاهر. نقله أبو حيان في "البحر المحيط"[4]، فالجمهور -كما ترى- موافقون للصوفية على إِثبات الباطن والظاهر، وأَنّ لكل منهما أهلاً يختصون به، فماذا يقول المُعترضون؟

إِلا أن في الحديث إِشكالاً أجاب عنه الحافظ ابن حجر بما سبق في كلامه، وسلك في الجواب عنه الشيخ سراج الدين البُلقيني في شرح البخاري مسلكاً آخر حيث قال: "هذا الحديث قد يشكل، فإن العلم المذكور في الجهتين كيف لا ينبغي علمه؟ وجواب هذا الإِشكال أن علم الحقائق والكشوف ينافي علم الظاهر، فلا ينبغي للعالِم الحاكم بالظاهر الذي هو مُكلف به أن يعلم الحقائق للتنافي، ولا ينبغي للعالِم بالحقيقة أن يعلم العلمَ الظاهر الذي ليس مكلفاً به الذي ينافي ما عنده من الحقيقة ويمكن حمل العلم على تنفيذه، والمعنى: لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به لأن العمل به مناف لمقتضى الشرع، ولا ينبغي لي أن أعلمه فأعمل بمقتضاه، لأنه منافٍ

---

1 "فتح الباري" 418/8.

2 رواه البخاري في "صحيحه" ح 122، ومسلم في "صحيحه" ح 2380، والترمذي في "سننه" ح 3149، والنسائي في "السنن الكبرى" ح 11308، وليس هو في سنن أبي داود ولا عند ابن ماجه كما يوهمه صنيع المؤلف رحمه الله، وكذلك حققه الحافظ المزي في "الإشراف" 102/3.

3 ومذهب جمهور الصوفية أنه ولي صالح والحجة معهم، وبيان ذلك يفصل في جزء مستقل بإذن الله تعالى.

4 "البحر المحيط" 139/6.

لمقتضى الحقيقة، فعلى هذا لا يجوز للوليّ التابع للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إِذا اطّلع على حقيقة أن يُنَفّذ ذلك بمقتضى الحقيقة، وإِنما عليه أن يُنَفّذ الحكم الظاهر."اهـ

ويؤيد حمل العِلم على التنفيذ ما جاء في روايةٍ لمسلم: «أنّ الخضر قال لموسى عليه السلام ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا[1]﴾شيءٌ أُمرت به أن أفعله إِذا رأيته لم تصبر[2]»، فهذا صريح في حَملِ العِلم على تنفيذه.

وفي الحديث مسألة أخرى أشار إِليها العلامة الأُبيّ في "شرح مسلم"[3] حيث قال -في شرح قول موسى (هل أتبعك) اِلخ-: "عِلم الخضر هو العِلم بالمغيبات الموهوبة الدينية غير المكتسبة، فكيف يسأل تعليم ما لا يُكتسب؟ وكان الشيخ -يعني شيخه الإِمام ابن عرفة[4] الذي قيل فيه إِنه المُجدد على رأس المائة الثامنة- يُجيب بأن ذلك قد يكون باعتبار تعلم أسبابه فيمكن اكتسابها بالتزام نوع من طاعة الله تعالى ا.هـ وهو يشير إِلى ما اتفق عليه الصوفية أنَّ المجاهدة والتزام الذكر مع حضور القلب يُورث علوماً وهبية، ويؤيده ما رواه الحسين المروزي في"زوائد الزهد[5]" لشيخه عبد الله بن المبارك فقال: حدثنا أبو معاوية، أنبأنا حجاج، عن مكحول، عن

---

1 الكهف: 67-68

2 "صحيح مسلم" ح 2380.

3 "إكمال الإكمال" 176/6.

4 محمد بن محمد بن عرفة الورغمي أبو عبد الله التونسي المالكي ولد بتونس سنة 716 وتوفي بها سنة 803 هـ، من تصانيفه "تساعيات في الحديث"، "تفسير القرآن" ، "عشاريات" في الحديث، "المبسوط" من فروع المالكية، "مختصر الحوفي" في الفرائض، "منظومة في قراءة يعقوب".

5 "زوائد الزهد" 359/1.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، إسناده صحيح[1].

ورواه ابن عدي في "الكامل"[2] من حديث ابن عباس بإِسناد ضعيف[3]، ورواه أبو نعيم في "الحلية"[4] من حديث أبي أيوب بإِسناد ضعيف[5] أيضاً.

الحديث الرابع

للقرآن ظاهرٌ وباطنٌ

عن الحسن البصري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لكل آية ظهرٌ وبطن ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع" رواه الفريابى في تفسيره بإِسناد صحيح، ورواه أبو عبيد في "فضائل القرآن"[6] عن الحسن أيضا بإِسناد حسن.

وروى أبو يعلى والبّزار والطبراني في "الأوسط"[7] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن» رجال الحديث ثقات كما قال الحافظ الهيثمي[1].

---

1 إلا أنه مرسل، ورواية أبي نعيم الآتية تجبر الإرسال.

2 "الكامل" 307/5.

3 لقول ابن عدي عقبه: "وهذا متنه منكر، وعبد الملك بن مهران له غير ما ذكرت وهو مجهول ليس بالمعروف."اهـ

4 "حلية الأولياء" 189/5.

5 لأنه من رواية يزيد بن أبي يزيد عبد الرحمان الواسطي وهو كثير الخطأ.

6 "فضائل القرآن" 97/1

7 "مسند أبي يعلى" 278/9، "مسند البزار" 442/5، "المعجم الأوسط" 236/1.

قال ابن النقيب[2] في "تفسيره": "ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق. والحد هو الغامض من المعاني، والمطلع ما يتوصل به إِلى معرفته، ولا يتوصل إِلى غامض المعاني إِلا أرباب الحقائق بما أفاض الله عليهم من الأسرار والمعارف." اهـ

عليٌّ عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن

روى أبو نعيم في "الحلية"[3] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :«إِن القرآن أُنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إِلا له ظهر وبطن وإِن عليَّ بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن»، وروى[4] أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنا نتحدث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهد إِلى عليٍّ سبعين عهداً لم يعهده إِلى غيره». فهذا تصريح بأن الصحابة كانوا يعترفون لعليّ بتفوقه في علوم الحقائق والأسرار، وهذا مما لا نزاع فيه، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه

1 "مجمع الزوائد" 152/7.

2 محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين البلخي الأصل جمال الدين أبو عبد الله المقدسي الحنفي المعروف بابن النقيب ولد سنة 611 وتوفي سنة 698 هـ. من تصانيفه "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير" في خمسين مجلدا.

3 "حلية الأولياء" 65/1.

4 "حلية الأولياء" 68/1.

وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»[1] وهو حديث صحيح كما بينه شقيقي الحافظ أبو الفيض[2] في كتاب "فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ".

وقال ابن عباس: "سلّمَ الصحابة لعلي تسعة أعشار العلم، وشاركهم في العُشر العاشر"، وكان عمر رضي الله عنه يقول: "أعوذ بالله من قضية ليس لها أبو حسن" يعني علياً عليه السلام، وقال أيضا: "لولا عليّ لهلك عمر". ونَصَّ المُناوي على أن عمر لم يكن يبعث علياً في الفتوحات مع شجاعته الفائقة لاحتياجه إلى علمه، وحصلت حادثة في عهد أبي بكر رضي الله عنه أشكلت عليه وعلى الصحابة، فأرشدهم ابن عباس إِلى إِحالتها على عليٍّ عليه السلام فلمّا أجاب عنها وحل مغلقَها، قال له أبو بكر والصحابة: يا مُفرج الكروب، وهذه الحادثة مروية بإِسنادها في كتاب "المجتنى[3]" لابن دريد.

ولهذا كان عليّ عليه السلام أستاذَ الصوفية ورئيسَهم، كما قال الجُنيد وابن العربي الحاتمي وغيرهما، وسلسلة الطريق لا تتصل إِلا به، ولا تنتهي إِلا إليه بالتلقين والاقتداء والصحبة كما فصّله أخي[4] في "البُرهان الجلي".

الحديث الخامس

علوم الحقائق لا يُنكرها إِلا المغرورون

---

1 رواه الحاكم في "المستدرك" 137/3.

2 الحافظ الإمام الحجة المجتهد سيدي أحمد بن محمد بن الصديق الغماري صاحب التصانيف العديدة والكتب الشهيرة المفيدة، المتوفى بالقاهرة عام 1380 هـ

3 "المجتنى" ص 42.

4 أي الحافظ الإمام سيدي أحمد ابن الصديق المذكور.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنّ مِنَ العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إِلا أهل العلم بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إِلا أهل الغرة بالله» رواه الطبسي- في "الترغيب"، ورواه الديلمي في "مسند الفردوس"[1] وهو حديث ضعيف، لكنه يتأيد بشيئين:

أحدهما: ما ثبت في "صحيح البخاري"[2] عن أبي هريرة أيضا قال: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين فأَما أحدَهُما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البُلعوم". قال البخاري: البُلعوم: مجرى الطعام وهو بضم الباء، وفي رواية "لقُطِع هذا" يعنى رأسه.

فذلك الوعاء الذي لم يبثَّهُ محمول على الأحاديث التي فيها بيان أمراء السوء من بني أُمية وعلى الأحاديث التي تتعلق بأشراط الساعة والملاحم في آخر الزمان فينكر ذلك من لم يألفْه طبعُه؛ كما حصل من مبتدعة العصر إِنكار المهدي ونزول عيسى[3] وخُروج الدجال والميزان، وغير ذلك. وعلى ما تلقاه من الأسرار والحقائق التي يضيق نطاق كثير من الناس عن فهمها فيبادرون إِلى إِنكارها.

ثانيهما: ما هو واقع مشاهد، فلا يُنكر علوم الصوفية وما وهبهم الله من الحقائق إِلا الأغرار المفتُونون أصحاب مطامعٍ وأغراض. ومما يصحح به الحديث الضعيف عند أهل الحديث أن يكون الواقع على وفقه لأنه ليس بعد الواقع المشاهد دليل.

---

1 عزاه إليهما السيوطي في "اللآلئ المصنوعة".

2 "صحيح البخاري" ح 120.

3 وللإمام المؤلف سيدي عبد الله ابن الصديق ردود عليهم في إثبات نزول سيدنا عيسى عليه السلام وخروج سيدنا المهدي عليه السلام.

الحديث السادس

علم الباطن هو العلم النافع

عن الحسن، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العلمُ عِلمان: فعلمٌ ثابت بالقلب فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذاك حُجةُ الله على عباده.» رواه الخطيب في "التاريخ"[1]، وحَسّنهُ الحافظان زكي الدين المنذري[2] وزين الدين العراقي[3]، وأعله ابن الجوزي[4] فلم يُصب، ورواه أبو نعيم[5] والديلمي في "مسند الفردوس"[6] من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وهذا الحديث أورده قطب الدين القسطلاني[7] -وهو قبل القسطلاني صاحب "المواهب اللدنية"- في كتابه في "التصوف" شاهداً للحديث السابق، يشير بذلك إلى أن العلم الثابت

---

1 "تاريخ بغداد" 346/4.

2 "الترغيب والترهيب" 58/1.

3 "تخريج أحاديث الإحياء" 59/1.

4 "العلل المتناهية" 83/1.

5 أما في "حلية الأولياء" فلم أجده بهذا اللفظ، وكذا لم أجده عنده في "الأربعين في التصوف"، ولعل المؤلف رحمه الله رأى المنذري في "الترغيب والترهيب" قد عزاه إلى الأصبهاني في كتابه فذهب وهلُه إلى أنه أبو نعيم صاحب "الحلية"، بل هو الأصبهاني أبو الشيخ الذي روى هذا الحديث في كتابه "طبقات المحدثين بأصبهان"؛ والله أعلم.

6 "مسند الفردوس" 68/3.

7 محمد بن أحمد بن علي بن محمد القسطلاني قطب الدين أبو بكر التوزري الشافعي الشيخ في دار الحديث الكاملية ولد سنة 614 وتوفي سنة 686 هـ. قال السيوطي في "حسن المحاضرة": "له تصانيف في الحديث والتصوف"، منها "الأدوية الشافية في الأدعية الكافية"، "ارتفاع الرتبة باللباس والصحبة"، "تتميم التكريم لما في

بالقلب هو علم الباطن، بدليل حديث "من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" وقد تقدم تخريجه، وأنّ علم اللسان هو علم الظاهر وهو حجة الله على عبده إِذا لم يعمل به. وإِنما كان علم الباطن الذي هو علم القلب نافعاً لأنه لا يحصل للشخص إِلا بعد المُجاهدة والعمل بالعلم الظاهر إِذ هو نتيجته وثمرته، بخلاف علم الظاهر فلا ينتفع به إِلا من يعمل به، وليس كل عالم عاملاً.

وقد روى ابن أبي حاتم في "تفسيره" من طريق سفيان الثوري، عن أبي حيان التيمي، عن رجل قال: "كان يقال: العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله يخشى الله، ليس بعالمٍ بأمرِ الله. وعالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله يخشى اللهَ فذاك العالم الكامل -لجمعه بين علمي الظاهر والباطن- وعالمٌ بأمرِ الله ليس بعالمٍ بالله لا يخشى الله، فذلك العالم الفاجر"[1]، وإِنما كان هذا فاجراً لأنه لم يعمل بعلم الظاهر، والأول من علماء الباطن وهو من الأبرار لأنه خشي الله واتقاه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

الحديث السابع

الإلهام – التحديث

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون، فإِن يكن في أمتي أحد فإِنه عمر»، وفي رواية «قد كان فيمن قبلكم من بني إِسرائيل

الحشيش من التحريم"، "تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة"، "عروة الوثيق في النار والحريق"، "وسيلة العباد في فضيلة الجهاد".

1 **"تفسير ابن أبي حاتم"** 3180/10.

2 **البقرة:** 282.

يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فعمر» رواه البخاري[1]، ورواه مسلم[2] من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فعمر منهم.»، قال ابن وهب: تفسير محدَّثون -بفتح الدال المشددة- مُلهمون.

قال أكثر العلماء: المُلهَم هو الرجل الصادق الظن، يُلقَى في روعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيرُه به. وقيل: مُكلَّم تُكلمه الملائكة من غير نبوة كما تقدم في إحدى روايتَيْ أبي هريرة. وجاء في حديث أبي سعيد الخدري قيل: يا رسول الله: وكيف يُحدّث؟ قال «تتكلم الملائكة على لسانه» رواه الجوهري في "فوائده"[3]، قال الحافظ ابن حجر[4]: "ويحتمل رده إلى المعنى الأول، أي تُكلمه في نفسه وإن لم ير مُكلما في الحقيقة، فيرجع إلى الإلهام".

وقوله «فإن يكن في أمتي أحد...» الخ، قال الحافظ ابن حجر[5]: "قيل لم يورد هذا القول مورد الترديد، فإن أمته أفضل الأمم، وإذا ثبت أن ذلك وجد في غيرهم فإمكان وجوده فيهم أولى، وإنما أورده مورد التأكيد كما يقول الرجل: إن يكن لي صديق فإنه فلان، يريد اختصاصه بكمال الصداقة، لا نفي الأصدقاء...

وقيل: الحكمة فيه أن وجودهم في بني إسرائيل كان قد تحقق وقوعه، وسبب ذلك احتياجهم حيث لا يكون حينئذ فيهم نبي واحتمل عنده صلى الله عليه وآله وسلم ألا تحتاج هذه الأمة إلى ذلك لاستغنائها بالقرآن عن حدوث نبي. وقد حصل ذلك -أي حصل الاستغناء

---

1 "صحيح البخاري" ح 3282، ورواية "يكلمون" عنده في "صحيحه" ح 3486.

2 "صحيح مسلم" ح 2398.

3 رواه الطبراني في "الأوسط" 493/14 وابن عساكر في "تاريخ دمشق" 23/14.

4 "فتح الباري" 50/7.

5 المصدر السابق.

بالقرآن- حتى إِن المُحدَّث منهم- بفتح الدال المشددة- إِذا تحقق وجوده لا يحكم بما وقع له، بل لا بد من عرضه على القرآن فإِن وافقه أو وافق السنة عمل به وإِلا تركه، وهذا وإِن جاز أن يقع -لكنه نادر ممن يكون أمره منهم مبنياً على اتباع الكتاب والسنة، وتمَحَضَت الحكمة في وجودهم وكثرتهم بعد العصر الأول، في زيادة شرف هذه الأمة بوجود أمثالهم فيه، وقد تكون الحكمة في تكثيرهم مضاهاة بني إِسرائيل في كثرة الأنبياء فيهم، فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها لكون نبيها خاتم الأنبياء، عُوِّضوا بكثرة الملهمين." اهـ كلام الحافظ.

هذا وقد اهتم علماء الأصول بالإِلهام، وعقدوا له بحثاً خاصاً تكلموا فيه على معناه، والاحتجاج به. قال التاج السبكي في "جمع الجوامع[1]": "الإِلهام إِيقاع شيء في القلب يُثلَجُ له الصدر." أي ينشرح له. وقال الشوكاني في "إِرشاد الفحول"[2]: "دلالة الإِلهام ذكرها بعض الصوفية، وحكى الماوردي والروياني في كتاب "القضاء في حجية الإِلهام" خلافاً"، قال الزركشي في "البحر المحيط"[3]: "واختار جماعة من المتأخرين اعتماد الإِلهام، منهم الإِمام الرازي في "تفسيره" في أدلة القبلة، وابن الصلاح في "فتاواه"، فقال: إِلهام خاطر حقٌّ من الحق، قال: ومن علامته أن ينشرح له الصدر، ولا يعارضه معارض آخر.

وقال أبو علي التميمي في كتاب "التذكرة في أصول الدين": ذهب بعض الصوفية إِلى أن المعارف تقع اضطراراً للعباد على سبيل الإِلهام، بحكم وعد الله سبحانه وتعالى بشرط التقوى،

---

1 "جمع الجوامع" 398/2 مع حاشية العطار.

2 "إِرشاد الفحول" ص 415.

3 "البحر المحيط" 400/4.

واحتج بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[1] أي ما تفرقون به بين الحق والباطل، وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾[2] أي من كل ما يلتبس على غيره وجه الحكم فيه، وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[3]، فهذه العلوم الدينية تحصل للعباد إذا زكت أنفسهم وسلمت قلوبهم لله تعالى بترك المنهيات، وامتثال المأمورات، وخَبرُهُ صدقٌ ووعدهُ حق...

واحتجّ شهاب الدين السُّهروردي على الإلهام بقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[4] وبقوله ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[5] فهذا الوحي هو مجرد الإلهام، ثم إن من الوحي علوماً تحدث في النفوس الزكية المطمئنة، قال صلى الله عليه وآله وسلم «إن من أمتي المُحدّثين والمُكلّمين وإن عمر لمنهم»، وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[6] فأخبر أن النفوس مُلهم."اهـ

واختار السهروردي أن الإلهام حجة لمن وقع له دون غيره، ومال إليه سعد الدين التفتازاني في بعض مصنفاته، والراجح عند الجمهور أنه ليس بحجة، لانتفاء العصمة، وهو قول جمهور الصوفية أيضا.

---

1 **الأنفال**: 29.

2 **الطلاق**: 65.

3 **البقرة**: 282.

4 **القصص**: 7.

5 **النحل**: 68.

6 **الشمس**: 7–8.

الحديث الثامن

الحـقيقـة

عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي رجلاً يُقال لـه: حارثـة، في بعـض سـكك المدينة فقال: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قـال: أصـبحت مؤمنـاً حقـا، فقـال: «إن لكـل قـول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟»، فقال: عزفت نفسي عن الـدنيا فأسـهرت لـيلي وأظمـأت نهـاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكـأني أسـمع عـواء أهـل النار، فقال «مؤمنٌ نوّرَ الله قلبه»، وفي رواية "عرفتَ فالزم، مؤمنٌ نوّرَ اللهُ قلبه»؛ رواه البـزار في "مسنده"[1] والبيهقي في "الشعب"[2]، وله طرق عند ابن المبـارك في "الزهـد"[3]، وعبـد الـرزاق في "التفسير"، والطبراني في "المعجم"[4]، وابن منده.

في هذا الحديث إثبات المجاهدة، والزهد، وجولان الروح في العرش والجنة والنار بطريـق التفكير والمشاهدة القلبية. وفيه أيضاً إثبات الحقيقة، وهـو المقصـود هنـا، قـال شـارح "منـازل السائرين": "حقيقة الشيء عند أهل هذا الشأن علاماته الدالة عليه"، واستدل بهذا الحديث.

---

1 "مسند البزار" 175/11.

2 "شعب الإيمان" 362/7.

3 "الزهد" 106/1.

4 "المعجم الكبير" 266/3 عن الْحَارِث بن مَالك.

قال الحافظ السيوطي[1]: "ويظهر لي أن أهل هذا الشأن إنما سمّوا عِلمَهم علَم الحقيقة أخـذاً من لفظ الحقيقة في هذا الحديث، وقد ظهر لي أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة علـم المعاني والبيان إلى علم النحو، فهو سره ومُبنى عليه، فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غـير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين ولا يحصل على شيء، كما أنّ من أراد الخوض في أسرار عِلـم المعاني والبيان من غير أن يُحكم النحو فهو يخبط خبط عشواء، وكيـف يُـدرك أحـوال الإِسـناد والُمسند إليه والُمسند ومتعلقات الفعل مَنْ لم يعرف المبتدأ من الخبر والفاعل مـن المفعـول؟ هـذا بيّن لكل أحد، والحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص، كما أن المعاني والبيان سرُّ النحـو ولطائفـه، والتصوف فقه بلا شك، فإن أكثرَه تكاليف واجبة ومندوبة، ومنها محرمة ومكروهة، وقد نـصَّ على أن أبواب التصوف من الفقه جماعة من أهـل الأصـول، ووافقهـم ابـن السـبكي في "جمـع الجوامع".

واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها عـلى الفقهـاء بالعبـارة التـي ألفوهـا في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان، وكانوا أول قائل بها، وإنما يُنفرهم منها إيرادها بعبـارة مستغربة لم يألفوها. ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما يُعلم، وأقبح ما يُقال، وأنـا أورد لـك مثالاً تعرف به صحة ذلك.

قال في "منازل السائرين": حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تميز الثقة من العزة، ونسـيان الجنايـة، والتوبة عن التوبة أبداً، فإن سمع الفقيه هذا اللفظ استغربه جداً، وقال: كيف يُتاب من التوبـة؟ وإنما يتاب من المعاصي، وتقرير معناه: أن العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله ولم يسكن إليها توبةً كانت أو غيرها، فيتوب مـن سـكونه إلى توبتـه. لأن التوبـة –وإن كانـت مـن

[1] "تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية" ص 32.

كَسْبِ العبد– فهي من خَلقِ الله وتوفيقه، ولو لم يَتُب عليه لما تاب، قال تعالى ﴿ثُـمَّ تَـابَ عَلَـيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[1]. فرؤية العبد التوبةَ من نفسه ذنبٌ يُستغفَرُ منه، بل عليه أن يشهد محض مِنّة الله عليه بها وتوفيقه لها، ويلغي نفسه أصلا عن درجة الاعتبار، وهذا مقام الفناء في التوبة، وهي أول منازل السائرين، ويقاس به مقام الفناء في التوحيد فلا يشهد في توحيده صنعاً، بل محض مِنّـة الله عليـه به، وتوفيقه له، وهذا المعنى إذا عرض على الفقيه بهذِهِ العبارة المألوفة كان أول قائل به، ونـاصر له."اهـ

وقال سُلطان العلماء الإمام عزّ الدين بن عبد السلام في "قواعـد الأحكـام"[2]: "الطريـق في إِصلاح القلوب التي تَصلح الأجساد بِصلاحها وتَفسد بِفسادها: تطهيرُها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إِليه، ويزلـف لديـه، مـن الأحـوال والأقـوال والأعـمال، وحسـن الآمال، ولزوم الإقبال عليه، والإِصغاء إِليه، والمثول بين يديه، في كل وقتٍ من الأوقات وحالٍ من الأحوال، على حسب الإِمكان من غير أداء إِلى السآمة والمَلَل، ومعرفة ذلك هي المُلقبةَ بِعلـم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحةٌ بِإِصلاح القلـوب بالمعـارف والأحوال والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظـواهر معرفةٌ لِجُلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفةٌ لِدق الشريعة، ولا ينكر شيئاً منهما إِلا كافر أو فاجر، وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهـم شرٌ مـن قُطّـاع الطريق لأنهم يقطعون طريق الذاهبين إِلى الله تعالى."اهـ

1 التوبة:118.

2 "قواعد الأحكام" 179/2.

فتلخص من جميع ما تقدم: أن الحقيقة صلب الشريعة، بل هي لُبُّها وسِرُّها الخالص، وأن ما يُثار حولها من اعتراضات قد تصل إِلى الكفر أحياناً، مرجعه إِلى أمرين: أحدهما: صَوغُ معانيها في عبارات غامضة غير مألوفة كما أشار إِليها الحافظ السيوطي. "ثانيهما: تَشبّه الدُخلاء بأهل الحقائق كما أشار إِليه عزّ الدين بن عبد السلام، وجعل هؤلاء الدُخلاء شراً من قُطّاع الطريق، وهذا ما حمل رجال العشيرة المحمّدية[1] _وَفَقَهم اللهُ_ على القيام بحملةٍ واسعةٍ لتطهير التصوّف مما أُلصق به من بدعٍ وخرافات، وإِرجاعه إِلى ما كان عليه أيام السلف الصالح من السُموّ الروحي، والتهذيب الخُلقي، وَفَّقَ اللهُ الخُطى، وحَقَقَ الآمال.

الحديث التاسع

المُكاشفة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «اتقوا فَراسة المؤمن فإِنه ينظرُ بنورِ الله» رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم[2]، ورواه الطبراني في "الكبير" وأبو نعيم في "الطب النبويّ" والترمذي الحكيم في "نوادر الأصول"[3] من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه، ورواه ابن جرير وأبو نعيم[4] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه ابن

---

1 العشيرة المحمدية حركة إصلاحية صوفية أسسها الشيخ سيدي محمد زكي الدين بن إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي بمصر؛ وقد كانت هذه الدعوة نتيجة جهد كبير وعلم وتحقيق وخدمة أصيلة للتصوف الإسلامي، واتسمت هذه الدعوة المحمدية بالوسطية والمنهجية والشمول...وقد كان الإمام المؤلف سيدي عبد الله ابن الصديق أحد كبار رجالاتها.

2 "تفسير ابن جرير" 46/14 ، "تفسير ابن أبي حاتم" ، "سنن الترمذي" ح 3127.

3 "المعجم الكبير" 102/8، "نوادر الأصول" 86/3.

4 "تفسير ابن جرير" 46/14، "حلية الأولياء" 94/4.

جرير[1] من حديث ثوبان رضي الله عنه ولفظه «احذروا فَراسة المؤمن فإِنه ينظر بنور الله، وينطقُ بتوفيقِ الله» وهو حديثٌ حسنٌ كما قال الحافظان نور الدين الهيثمي[2]، وجلال الدين السيوطي، وأورده ابن الجوزي في "الموضوعات"[3] فلم يصب.

وروى ابن جرير والبزار[4] عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إِن لله عباداً يعرفون الناس بالتّوَسُم» إِسناده على شرط الحسن.

هذا الحديث أصل في الكشف الذي يقع لكثير من الأولياء، تجد الواحد منهم يكاشِف الشخص بما حصل منه في غيبته كأنه كان حاضراً معه، ونَص الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"[5] –في شرح حديث قتل خُبيب– رضي الله عنه– على "أن إِجابة الدعوة في الحال وتكثير الطعام والماء والمكاشفة بما يغيب عن العين والإِخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كُثر جداً حتى صار وقوع ذلك ممن يُنسب إِلى الصلاح كالعادة."اهـ

وقال أيضاً[6] –في شرح حديث «في خمسٍ لا يعلمهن إِلا الله»–: "وأما ما ثبت بنَصِ القرآن أن عيسى عليه السلام قال: إِنه يُخبرهم بما يأكلون وما يدّخرون، وأن يوسف قال: إِنه ينبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتي إِلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات، فكل ذلك يمكن أن

---

1 "تفسير ابن جرير" 47/14.
2 "مجمع الزوائد" 268/10.
3 "الموضوعات" 331/2.
4 "تفسير ابن جرير" 46/14، "مسند البزار" 74/11.
5 "فتح الباري" 383/7.
6 "فتح الباري" 714/8.

يُستفاد من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[1] فإنه يقتضي اطلاع الرسول على بعض الغيب، والوليّ التابع للرسول عن الرسول يأخذ، وبهِ يُكرم. والفرق بينهما أن الرسول يطّلع على ذلك بأنواع الوحي كلها، والوليّ لا يطّلع على ذلك إلا بمنامٍ أو إلهامٍ والله أعلم."اهـ

الحديث العاشر

الخلوة والانقطاع إلى الله

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنّثُ فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد، ويتزودُ لذلك» رواه البخاري[2].

في هذا الحديث دليل للصوفية في الخُلوةِ والانقطاع عن الخَلْقِ في الزوايا والمساجد، قال العارف أبو محمد بن أبي جمرة في "بهجة النفوس[3]": "في الحديث دليل على أن الخُلوة عَونٌ للإنسان على تعبده وصلاح دينه، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمّا اعتزل عن الناس وخلا

---

1 **الجن**: 27.

2 **"صحيح البخاري"** ح 3.

3 **"بهجة النفوس"** 33/1.

بنفسه أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم الله له من مقامات الولاية."اهـ

ولأن الخُلوة تعين على التفكر في عظمة الله، وسعة قُدرته، وعموم نعمته، وباهر حكمته، وقد كان تعبُّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خلوته بغار حراء تفكراً واعتباراً، وحضّ القرآن الكريم على التفكر في غير آية، منها قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

وأيضاً فإن الخلوة أجمعُ لقلبِ المُريد وأعونُ له على التفرغ لذكر الله وأبعدُ عن الرياء. وأيضا فإن الخُلوة تُبعدُ المُريد عن مواطنِ اللغوّ واللَغَط، وتهيئهُ لقبول الواردات الإلهية والتَجَلِيات الربّانية: ولهذا رغب الشارع فيها، وجعلها من العادات المطلوبة، وأفردها فقهاء المذاهب بباب خاص لها هو باب الاعتكاف ذكروا فيه أحكامه وشروطه وآدابه. وثبت في الصحيحين[2] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فيلزم المسجد النبوي، ويعتزل نساءه، ويُقبل على العبادة والذكر وتلاوة القرآن، ولا يخرج إلا لقضاء حاجة الإنسان»؛ وفي "سُنن أبي داود[3]" بإسناد لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها قالت: «السُنّةُ على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يُباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بُد له منه»، فهذه هي الخُلوة التي اتخذها الصوفية، وسموها تجريدا، لأن المُريد يتجرد من

---

1 آل عمران: 190-191.

2 "صحيح البخاري" ح 1928، "صحيح مسلم" ح 1172.

3 "سنن أبي داود" ح 2473.

العلائق والعوائق وينقطع إِلى الذكر والعبادة مدة قد تطول وقد تقصر بحسب استعداده وما قُسِمَ له.

لكنهم صرّحوا مع ذلك بأن المُريد إِذا كان له عمل يتكسب به كالتجارة أو صناعة مثلا، فلا ينبغي له تركه إِلى الخُلوة والتجريد، بل يبقى في عمله الذي أقامه الله فيه، ويستطيع أن يذكر الله في حالته تلك وفي أوقات فراغه، ولهذا قال ابن عطاء الله في الحكم: "إِرادتك التجريد مع إِقامة الله إِيّاك في الأسباب من الشهوة الخفيّة، وإِرادتك الأسباب مع إِقامة الله إِيّاك في التجريد انحطاط عن الهمّة العليّة"؛ ودليلهم على ذلك حديث كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جَلَده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إِن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإِن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإِن كان خرج يسعى على نفسه يعِفّها فهو في سبيل الله، وإِن كان خرج يسعى رياءً ومُفاخرةً فهو في سبيل الشيطان» رواه الطبراني[1] بإِسناد صحيح. وقد كان في الصحابة أهل التجريد، وأصحاب الأسباب، أما أهل التجريد فهم أهل الصُّفَة كانوا نحو سبعين صحابياً مقيمين بالمسجد النبويّ لا أهل لهم ولا مال، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُنفق عليهم، واسمع إِلى أبي هريرة يتحدث عن نفسه وعنهم –وهو أحدهم– فيقول: والذي لا إِله إِلا هو إِن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإِن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر بي أبو بكر فسألته عن آية في كتاب الله، ما سألته إِلا ليشبعني فلم يفعل، ثم مر عمر فسألته عن آية من كتاب الله،

1 "المعجم الكبير" 129/19.

ما سألته إِلا ليشبعني فلم يفعل، ثم مر أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم فتبسّم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، فقال: «يا أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «اِلْحَق» وَمَضى، فاتبعته فدخل فاستأذن، فأُذن له فدخل فوجد لبَناً في قدح، فقال «مِن أين هذا اللبن» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «يا أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إِلى أهل الصفة فادعهم لي»، قال: وأهل الصفة أضياف الإِسلام لا يلوون على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحد، إِذا أَتَتْهُ صدقةٌ بعث بها إِليهم ولم يتناول منها شيئا، وإِذا أتته هدية أرسل إِليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «يا أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «خذ فأعطهم»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فتبسم فقال: «يا أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «وبقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب» فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة. رواه البخاري[1] وغيره. وجاء في حديث لأبي هريرة أن أهل الصفة كانوا سبعين صحابياً، قال الحافظ ابن حجر[2]: "وليس المراد حصرهم في هذا العدد، بل المراد عدّتهم في أول الأمر، وإِلا فمجموعهم أضعاف ذلك، وقد سرد أبو نعيم أسماءهم في أول "الحلية" فزادوا على المائة."اهـ

1 "صحيح البخاري" ح 6087.

2 "فتح الباري" 287/11.

وأما أصحاب الأسباب فمعظم الصحابة، فالأنصار كانوا أهل نخل وزرع، والمهاجرون أهل تجارة وفيهم الخلفاء الأربعة إلا علياً عليه السلام فإنه كان على حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الزهد وترك الأسباب إلا في القليل النادر، ولذا كان من أوصافه اللازمة له لزوم الشجاعة والعلم.

الفتـــــوة

قال الأستاذ أبو القاسم الجُنيد: "الفتوة كف الأذى، وبذل الندى."، وقال أبو القاسم القُشيري[1]: "أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في أمر غيره"، ونقل عن شيخه الأستاذ أبي بكر الدقّاق أنه قال: "هذا الخُلُق لا يكون كماله إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن كل أحد في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول "أُمَتي أُمَتي". ثم استدل القُشيري لهذا الخُلق بما رواه بإسناده عن أبي هريرة، عن زيد بن ثابت، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم». وهذا الحديث رواه الطبراني[2] أيضاً بإسناد رجاله ثقات كما قال الحافظ المنذري[3].

وفي "صحيح" مسلم والسُنن الأربعة[4] عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «من نفّس عن مسلم كُربةً من كُرب الدنيا نفّس اللهُ عنه كُربةً من كُربِ يوم القيامة، ومن

---

1 "الرسالة القشيرية" ص 112.

2 "المعجم الكبير" 118/5.

3 "مجمع الزوائد" 193/8.

4 "صحيح مسلم" ح 2699، "سنن أبي داود" ح 4946، "سنن الترمذي" ح 1425، "سنن النسائي" في "الكبرى"ح 7284 ، "سنن ابن ماجه" ح 225.

يَسّر على مُعسر في الدنيا يسّر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مُسلمٍ في الدنيا ستر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، واللهُ في عونِ العبد ما كان العبد في عون أخيه».

وفي الصحيحين[1] عن ابن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسمله، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلمٍ كُربةً فرّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»، وهذا الخُلُق – أعني الفتوةَ– مرجعُه إِلى سخاوة النفس، وهو شرط في المريد كما قال جدُنا العارف الكبير أبو العباس أحمد [بن] عَجِيبةَ الحَسني في "شرح المباحث الأصلية"[2]، فقد قالوا: مِنْ أَقبحِ القبيح صوفيٌّ شحيح.

ثم هو يشتمل على عدة معان: الأول: الإِيثار. وقد مدحه الله تعالى في كتابه الكريم بقوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[3]، وسبب نزول هذه الآية ما ثبت في "الصحيحين"[4] عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فبعث إِلى نسائه فقُلن: ما معنا إِلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من يضُم أو يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إِلى امرأته، فقال أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: ما عندنا إِلا قُوتَ صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبياني إِذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها

1 "صحيح البخاري" ح 2310، "صحيح مسلم" ح 2580.
2 "الفتوحات الإلاهية شرح المباحث الأصلية" ص 112.
3 الحشر: 9.
4 "صحيح البخاري" 4607، "صحيح مسلم" ح 2054.

ونَوّمت صبيانها ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه كأنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. الرجل الذي اشتكى الجهد هو أبو هريرة والأنصاري الذي ضيفه هو أبو طلحة.

وروى ابن مردويه في "تفسيره"[1] عن ابن عمر: أُهديَ لرجل رأسُ شاة، فقال: إن أخي وعياله أحوج مِنا إلى هذا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر، حتى رجعت إلى الأول بعد سبعة، فنزلت الآية، قال الحافظ ابن حجر[2]: "ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله."اهـ

ومن أروع مواقف الإيثار عند الصوفية ما حكاه الجلال المحلي[3] في "شرح جمع الجوامع" فقال: "ولا التفات لِمَنْ رَمَاهم في جملة الصوفية بالزّندقة عند خليفة السلطان حتى أمر بضرب أعناقهم، فأمسكوا إلا الجُنيد فإنه تستر بالفقه وكان يفتي على مذهب أبي ثور شيخه، وبسط لهم النَطْع فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري للسياف فقال له: لِمَ تقدمت؟ فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة، فبهت، وأنهى الخبر للخليفة، فرَدّهم إلى القاضي فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه عنها، ثم قال -أي النوري- : وبعد، فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا

---

1 كما عزاه إليه السيوطي في "الدر المنثور" 107/8، وأخرجه الحاكم في "المستدرك" 526/2، والبيهقي في "شعب الإيمان" 259/3.

2 "فتح الباري" 120/7.

3 "شرح جمع الجوامع" 492/2 مع حاشية العطار.

بالله...الخ كلامه، فبكى القاضي وأرسل للخليفة يقول: إِن كان هـؤلاء زنادِقـة فـما عـلى وجـه الأرض مسلم، فَخَلَّى سبيلهم رحمهم الله ونفعنا بهم."اهـ والخليفة هو أبو الفضل جعفر المقتدر، والقاضي هو الإِمام إِسماعيل بن إِسحاق أحد أئمة المالكية.

الثاني: هدية المريد إِلى شيخه، ودليلها من القرآن والسُنَة، أما القرآن فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1]. قال علـيٌّ عليـه السـلام: لّما نزلت هذه الآية قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ترى، أديناراً؟» قلـت: لا يطيقونـه، قال: «فنصف دينار؟» قلت: لا يطيقونه. قال: «فكم؟» قلت: شعيرة، قال: «إِنك لزهيد»؛ قـال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾[2]، قال: فبي خفف الله ُعن هذه الأمة. رواه ابن جرير والترمذي[3] وحَسّنه. وقوله: شعيرة، يعنى وزنها من ذهب.

وقال عليّ أيضا: إِنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾[4]، قال: كان عندي دينار فبِعته بعشرة دراهـم فناجيـتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكنت كلما ناجيته قدمت بين يدي نجوايَ درهمـاً ثـم نُسِـخَت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾، رواه الحاكم وصـحَحَهُ عـلى شرط الشـيخين وسلمه الذهبي[5].

1 المجادلة: 12.

2 المجادلة: 13.

3 "تفسير الطبري" 2821، "سنن الترمذي" ح 3300.

4 المجادلة: 12.

5 "المستدرك" 524/2.

وروى الطبراني[1] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: نزلت فيَّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾[2]، فقدمت شعيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنك لزهيد» فنزلت ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾[3].

وفي سنده راوٍ مختلف فيه[4]. ويمكن الجمع بينه وبين الأول بأن كلاً من عليٍّ وسعدٍ لم يطّلع على قصة الآخر، فتكلم بحسب ما في علمه.

وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[5]، وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى شَقّوا عليه، فأراد اللهُ أن يخففَ عن نبيه عليه السلام، فلمّا قال ذلك، جَبُنَ كثيرٌ من المسلمين وكَفّوا عن المسألة فأنزلَ اللهُ بعد هذا ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾[6]؛ فوسّع اللهُ عليهم ولم يُضيق[7].

يؤخذ من هذا أن تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول كانت واجبة ثم نُسِخَت، وإذا نُسِخَ وجوب شيء بقي استحبابه بل سُنيته، كما في صوم عاشوراء كان واجباً ثم نُسخ برمضان فبقي سُنة.

---

1 "المعجم الكبير" 147/1.

2 المجادلة: 12.

3 المجادلة: 13.

4 هو سلمة بن الفضل الأبرش، وثقه ابن معين وغيره وضعفه البخاري وغيره، كما قال الحافظ نور الدين في "المجمع" 122/7.

5 المجادلة: 12.

6 المجادلة: 13.

7 أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم 3344/10 وابن مردويه في "التفسير" كما قال السيوطي في "الدر المنثور" 83/8.

وأما السُنّة فما ثبت بالتواتر في قضايا متعددة أن الصحابة كانوا يهدون للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثياباً وطعاماً وغيرهما، وكان يقبل هديتهم؛ وتقدم قريباً حديث أبي هريرة في أهل الصفة، وفيه: إِذا أتته صدقة بعث بها إِليهم ولم يتناول منها شيئا، وإِذا أتته هدية أرسل إِليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. وفي "مُسند أحمد"[1] بإِسناد صحيح عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة»، وفي "المسند"[2] أيضاً بإِسناد صحيح عن أبي هريرة قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إِذا أُتِيَ بطعام من غير أهله سأل عنه، فإِن قيل: هدية أكل، وإِن قيل صدقة قال "كلوا" ولم يأكل».

بل أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بقبول الهدية ونهى عن ردها، ففي الصحيحين[3] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيني العطاء فأقول: أعطه مَنْ هو إِليه أفقر مني، فقال «خذه، إِذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه فتموله فإِن شئت كُله وإِن شئت فتصدق به، وما لا فلا تتبعه نفسك»؛ قال سالم بن عبد الله: فلأجل ذلك كان عبد الله لا يسأل أحداً شيئا ولا يرد شيئا أُعطِيه.

وفي "المُسند"[4] بإِسناد رجال ثقات عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: أهدى عبد الله بن عامر إِلى عائشة رضي الله عنها نفقة وكسوة، فقالت للرسول: أي بُني لا أقبل من أحد شيئاً، فلما خرج الرسول قالت رُدّوه عَلَيَّ، فردّوه فقالت: إِني ذكرت شيئاً، قال لي رسول الله صلى الله

1 "المسند" 437/5.

2 "المسند" 302/2.

3 "صحيح البخاري" ح 1404، "صحيح مسلم" ح 1044.

4 "المسند" 77/6.

عليه وآله وسلم: «يا عائشة من أعطاك عطاءً بغير مسألة فاقبليه، فإنما هو رزق عرضه الله عليك.»

وفي "المسند"[1] أيضا بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها، أن امرأة أهدت إِليها رِجل شاة تُصُدِّق بها عليها -أي على المرأة- «فأمرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تقبلها». وفي "المسند"[2] أيضاً بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من آتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله فإنما هو رزقٌ ساقه الله إِليه».

هذه الأدلة المتعددة وغيرها مما لم نذكره اختصاراً مستند شيوخ الصوفية -على ممر الزمان- في قبول هدايا المريدين من نقود وثياب وطعام وغير ذلك، ثم هم ينفقونها على الزوّار في البيت أو الزاوية فتكون منفعتها عامة، وبذلك يَعْظُم ثواب المُهدي ويَكْثُر أجره. أضف إِلى ذلك أن الهدية —وإِن قَلَّتْ قيمتها- تُوجِب محبة ومودة بين المُهدي والمُهدَى إِليه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تهادوا تحابوا» رواه أبو يعلى[3] عن أبي هريرة بإسناد جيد، وله طرق.

ولا شك أن المُريد إِنما ينتفع في السلوك على قدر حب شيخه له وعنايته به، بل كل طالب عِلمٍ من العلوم لا يُدرك من العِلم غايته، إِلا بقدر حب أستاذه له، وعنايته بتعليمه، ومن الحِكَم السائرة: "مَنْ عرف ما طلب، هان عليه ما بَذل".

---

1 "المسند" 308/6.

2 "المسند" 323/2.

3 "مسند أبي يعلى" 9/11.

الثالث: الضيافة، والأحاديث في الأمر بها والحَض عليها كثيرة بالغة حد التـواتر المعنـوي، ويكفي حديث الصحيحين[1]: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكـرِم ضـيفه»، وقـد جعلهـا الظاهرية فرضاً على الحضري والبدوي والفقيه والجاهل، والجمهور على أنها سُنّة مُرغـبٌ فيهـا وهي من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم. وللصوفية –خصوصـاً الشـاذلية– في القيـام بحقهـا القدح المعلى، فزوايا الشاذلية في مُدنِ المغرب وقُراه معدة لاستقبال الضيوف، لا ينزل بها غريب إلا لقي أهلاً يُكرمونه ويُتحفونه، وإن كان في حاجة إلى مساعدة مدُّوه بها وذلك بأن يجمع مُقدّم الزاوية من الفقراء –الدراويش– مبلغاً من المال يُقدّمه للضيف عند سفره، وإن كـان مـن أهـل الطريق، أو ذوي الفضل والعلم تسابقوا إلى إكرامه في بيوتهم، ومهاداته بما يليق به، والمقصود أن الزوايا عندنا أشبه بالفنادق العامة المُعدة لاستقبال النُزلاء، إلا أنها لا تأخذ أجراً، بل تساعد من يرجو المعونة، وتهادي من يستحق التكريم، هذا إلى ما يقـوم بـه أصـحابها مـن عيـادة المـرضى وتشييع الجنائز، وإقامة حفلات للمولد النبوي الشريف تكون خيراً وبراً للمساكين والضـعفاء بما يتناولون من طعام وصدقات، هذا بعض فضل التصوّف ومزاياه في القطر المُرّاكشي، قبـل أن تكثر فيه النزعة الوَهّابية، مع ابتلائه بالأحزاب السياسية التي فرّقت بين أهلـه وجعلـتهم شـيعاً وفرقاً، وبثت فيه جرثومة التحلل من الأخلاق والدين، نسأل الله اللطف والسلامة.

الرابع: صلة الإخوان والأقارب وغيرهم بمختلف أنـواع الصـلات الماديـة والأدبيـة، وفي ذلك أحاديث كثيرة تفوق الحَصْر، منها ما تقدم قريباً، ومنها ما في أوسط معاجم الطبراني[2] عـن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، كسـوتَ

---

1 "صحيح البخاري" ح 5785، "صحيح مسلم" ح 47 عن أبي هريرة.

2 "المعجم الأوسط" 202/5.

عورته أو أشبعتَ جوعَته، أو قضيتَ له حاجَته»، ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر ولفظه: «أحبُ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُربة، أو تطرد عنه جوعاً، أو تقضي عنه ديناً»، وله طرق وألفاظ متعددة. وأهلُ التصوّف مَضرب المثل في التواصل والتعاون، ومساعدة أصحاب الحوائج في قضائها، وكأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عناهم بقوله «إنّ للهِ خلقاً خلَقهم لحوائج الناس، يَفزعُ الناسُ إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله"» رواه الطبراني[1] من حديث ابن عمر، وله طرق.

وممن أخذ من هذا الخلق بالحظ الأوفر مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه فقد كان لا يمر عليه يوم دون أن يقضي ديناً عن مدين، أو يدفع أجرة عن شخص تأخر في دفع الإيجار، أو يكسو فقيراً ليس عنده ثياب، وإذا كان له أولاد كساهم معه، أو يُصلح بين متخاصمين طالت خصومتهما واشتد عداؤهما فيدَعُهما أخوين متحابين، أو يشفع عند الحاكم في مظلوم، على أن يبعث رسولاً من طرفه فما مشى إلى حاكم قط، ولقد أنقذ بشفاعته شخصاً من الإعدام حكمت به عليه الحكومة الإسبانية الغاشمة لاتهامه بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم، ويتعاهد بيوتاً كثيرة في الأعياد والمناسبات كزكاة الفطر واللحم في عيد الأضحى وغير ذلك، أما تصدّقه بالثياب التي عليه وقعوده في البيت حتى يتيسر له غيرها فقد حصل منه مرات عديدة، حتى كان

1 "المعجم الكبير" 358/12.

بعض الإخوان ممن له عليه دالة يعتب عليه في ذلك فيظهر له من الثقة بالله والتوكل عليه ما يحمله على تشجيع الشيخ في الاستزادة من التصدق والإعطاء[1].

هذه أخلاق الصوفية كما شاهدناها عياناً، وقرأنا عنها في كتب التراجم والطبقات، فإذا وجد في شيوخ الطريقة من هو على ضد هذه الخصال، فهو دَعِيّ دخيل، والتصوف بريء منه ومن أمثاله. ويجب هنا أن نعرض لرد مسألة طالما تشدّق بها المنتقدون للتصوّف، ذلك أنهم يزعمون أنّ الصوّفية أصحاب كسل وخمول وتواكل، وأنّ الإسلام يدعو إلى العمل والكسب والسعي في طلب الرزق، وهذا كلامُ مَن قَصُرَ نظره على الجانب الماديّ الضيق المحدود، وانصرفَ عن الجانب الروحي الواسع الشامل، مع أن الإِسلام راعى الجانبين، وأعطى لكل منهما حظَّه من العناية والاعتبار، بل غلَّب الجانب الروحي لأنه أعم وأبقى، وأسباب الرزق كما تكون ماديّة للعوام كالتجارة والصناعة مثلا، تكون روحيّة للخواص كالصلاة والتقوى، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾2، وقال ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾3، وقال:﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾4.

---

1 وقد ترجمه غير واحد من علماء زمانه ومؤرخيه، خاصة ولده الحافظ سيدي أحمد ابن الصديق رحمه الله في كتابه "سبحة العقيق بترجمة السيد محمد بن الصديق" ومختصره "التصور والتصديق بأخبار مولاي محمد بن الصديق"، والثاني مطبوع متداول.

2 طه: 132.

3 الطلاق: 2–3.

4 نوح: 10–12.

وتقدم أنّ أهلَ الصفة كانوا أكثر من مائة، لا أهل لهم ولا مال، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم يُنفِق عليهم، ولم يقل لهم: تَكَسّبوا واسعوا على رزقِكم بالتجارة وغيرها، نعم لَمْ يقل لهم هذا أصلاً، بل دافع اللهُ تعالى عنهم، حين قال المنافقون في حقهم ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ فردّ اللهُ تعالى عليهم بقوله ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾1. وهذا شرفٌ عظيم لأهل الصفة، ينطوي على التنويه بما كانوا عليه من الانقطاع للعبادة والتفرغ لها.

أما ما رواه أبو داود في "مراسيله"2، عن أبي قلابة أنّ ناساً من الصحابة قَدِمُوا يثنون على صاحب لهم خيراً، قالوا: ما رأينا مثل فلانٍ قطُّ، ما كان في مسيرٍ إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلاً إلا كان في صلاة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «فمَنْ كان يكفيه صنعته؟» حتى ذكروا مَن كان يَعْلِف جملَه أو دابّته؟ قالوا: نحن، قال: «فكلكم خيرٌ منه»، فهو حديث ضعيف لأنه مُرسَل؛ وعلى فَرَضِ صحته فهو محمولٌ على أن ذلك الشخص كان يستخدم غيره في شؤونه الخاصة به كعلف دابته، وتهيئة مكان نومه، وإعداد طعامه، ونحو ذلك كما هو صريح الحديث، وليس من المروءة أن يستخدم الشخص غيره في مثل ذلك، بل يقوم هو بنفسه بإعداده لاسيما في السفر المبني على التعاون التام، ألا ترى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم حين أراد الصحابة –وكانوا معه في سفر– أن يطبخوا طعاماً لغدائهم، وتعهد بعضهم بذبح الشاة، وآخر بسقي الماء، فتعهد هو صلى الله عليه وآله وسلّم بجمع الحطب، فقال الصحابة: نكفيك هذا يا رسول الله، قال: «علمت أنكم تكفوني ذلك ولكن كرهتُ أن أتميزَ عنكم» أو كما قال3، وهذا

1 المنافقون: 7.

2 "المراسيل" ص 235.

3 لم أقف عليه مسندا، وذكره المحب الطبري بغير سند في "خلاصة سير سيد البشر" ص 87.

من كمال المروءة، وآداب الصحبة والمعاشرة، وهو بمعزل عما نحن فيه، فالذين يستدلون بذلك الحديث المُرسل على الكَسب والسعي مخطئون في فهمه، مع غفلتهم عن ضعفه، ومما يؤيد ما نقول حديث أنس قال: كان أَخَوان على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، فكان أحدهما يأتي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، فقال «لعلك ترزق به» رواه الترمذي، وصحَّحَه الحاكم وسلَّمه الذهبي[1]، فالنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم أخبر الأخ المحترف بأنّ الله يرزقه ببركة إِنفاقه على أخيه المتفرغ للعبادة وملازمة الرسول وليس بعد بيان الله ورسوله بيان.

الأولــــياء

قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2] قال الزمخشري في "الكشاف"[3]: "الوليّ مَن تَولّى الله بالطاعة، فتولاه الله بالكرامة."اهـ، وقال السعد في "شرح العقائد النسفية"[4]، والجلال المحلي في "شرح جمع الجوامع"[5]: "الوليّ العارف بالله حسبما يمكن، المُواظب على الطاعات المُجتنب للمعاصي، المُعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات، وقيل: الوليّ من يُحب أخاه المؤمن لا يُحِبه إِلا لله، وقيل: غير ذلك."اهـ

---

1 "سنن الترمذي" ح 2345، "المستدرك" 172/1.

2 يونس: 62-63-64.

3 "الكشاف" 338/2.

4 "شرح العقائد النسفية" ص 92.

5 "شرح المحلي على جمع الجوامع" 481/2 مع حاشية العطار.

وهذه الأقوال –وإِن كانت في الظاهر مختلفة– فهي في الحقيقة متفقة، إِذ ما مِنْ وليٍّ إِلا وهو مُتصّفٌ بما ذكر فيها من الصفات، ومُتسّم بغيرها من كريم الخلال والسمات، وجاءت الأحاديث في هذا الباب مختلفة كاختلاف الأقوال وذلك محمول على اختلاف الأحوال، مع قصد الشارع الحضّ على أنواع من فضائل الأعمال، ونحن نورد منها ما تيسر:

1– عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب.» الحديث، وتقدم أول الكتاب.

2– عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إِنّ من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، فخبّرنا مَنْ هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها فوالله إِنّ وجوههم لنور، وإِنهم لعلى نور، لا يخافون إِذا خاف الناس، ولا يحزنون إِذا حزن الناس.» ثم قرأ (ألا إِن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون). رواه أبو داود في "سننه"[1].

وروى النسائي[2] نحوه عن أبي هريرة، وله طرق كثيرة.

3– عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم قال: «ثلاث من كُنّ فيه استحق ولايةَ الله: حِلمٌ أصيل يُدفع به سَفهُ السفيه عن نفسه، وورعٌ صادقٌ يحجزه عن معاصي الله، وخُلُقٌ حسن يداري به الناس.» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب "الأولياء"[3].

1 "**سنن أبي داود**" ح 3527.
2 "**سنن النسائي الكبرى**" ح 11236.
3 "**الأولياء**" ص 13.

4- عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: «لا يجد العبد صريح الإِيمان حتى يُحب لله تعالى ويُبغض لله، فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله فقد استحق الولاية لله.» رواه أحمد في "المسند"[1].

5- عن ابن عباس قال: سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم: مَنْ هم أولياء الله؟ قال: «هم الذين يُذكَرُ اللهُ عندَ رؤيتهم.» رواه النسائي والبزار[2]، ورواه ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا[3] وغيرهما عن سعيد بن جبير مرسلاً. وله طرق، منها عن أنس قال: قالوا: أيُّنا أفضل؟ كي نتخذه جليساً معلماً، قال «الذي إِذا رُؤيَ ذُكِرَ اللهُ برؤيته» رواه الحكيم الترمذي[4].

6- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ما جُبِلَ وليُّ لله عزّ وجلّ إِلا على السخاءِ وحُسن الخُلُق.» رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب "الثواب".

7- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: «قال الله تعالى: حقّت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقّت محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقّت محبتي للمتجالسين فيَّ، الذين يعمرون مساجدي بذكري، ويعلّمون الناس الخير، ويدعونهم إِلى طاعتي، أولئك أوليائي الذين أظلهم في ظل عرشي، وأسكنهم في جواري، وأؤمنهم من عذابي وأدخلهم الجنة قبل الناس بخمسمائة عام، يتنعمون فيها وهم خالدون.» ثم قرأ نبي الله صلى الله

---

1 "المسند" 430/3.

2 "السنن الكبرى" ح 11235.

3 "مصنف ابن أبي شيبة" 79/7، "الأولياء" لابن أبي الدنيا ص 14.

4 "نوادر الأصول" 41/2.

عليه وآله وسلّم ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، رواه ابن مردويه في "تفسيره[1]".

8- عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: يقول الله تعالى: إنّما أتقبل الصلاة مِمَنْ تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خَلْقي، وكَفّ نفسه عن الشهوات ابتغاء مرضاتي، فقطع نهاره في ذكري، ولم يبت مصراً على خطيئته، يُطعم الجائع، ويكسو العاري، ويرحم الضعيف، ويؤوي الغريب، فذاك الذي يُضيءُ وجههُ كما يُضيء نور الشمس، يَدعوني فأُلبّي، ويَسألني فأعطي، ويقسم عليَّ فأبرّ قَسمَه، أجعل له في الجهالة علماً، وفي الظلمة نوراً، أكلأه بقوتي، وأستحفظه ملائكتي.» رواه أبو نعيم في "الحلية"[2] والبزار[3] بنحوه. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، يستخلص الباحث من مجموعها أن الوليّ من تولى الله بأنواع القربات، فتولاه اللهُ بأنواعٍ من المواهب والمكرمات، ونُلحقُ بالأحاديث السابقة أثراً جامعاً في وصف الأولياء، رواه أحمد في "الزهد" وابن أبي حاتم في "التفسير"[4] وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: "قال الحواريون: يا عيسى، مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال عيسى عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى أجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً، وذكرهم إياهم فواتاً، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً، وما عارضهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه، بَلِيَت الدنيا

---

1 عزاه إليه السيوطي في "الدر المنثور" 372/4.

2 "حلية الأولياء" 18/4.

3 "مسند البزار" 197/10.

4 "الزهد" ص 60، "تفسير ابن أبي حاتم" 1964/1.

عندهم فليس يُجدِّدونها، وخَرِبَت بينهم فليس يعمِّرونها، وماتت في صدورهم فليس يحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين، وباعوها فكانوا ببيعها هم المربحين، ونظروا إلى أهلها صرعى، قد خلت فيهم المثلات، فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة، يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب، وعندهم الخير العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه علموا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أمانيّ دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون".

الأبـــــدال

وهم طائفة من الأولياء يُسمّون بهذا الاسم، وقد وردت أحاديث وآثار في تسميتهم ووصفهم وعلاماتهم وأماكن وجودهم، أفردها الحافظ السيوطي برسالة خاصة سمّاها "الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال"، قال في خطبتها[1]: "وبعد، فقد بلغني عن بعض من لا علم عنده إِنكارُ ما اشتهر عن السادة الأولياء مِن أنّ منهم أبدالاً ونُقباء ونُجباء وأوتاداً وأقطاباً، وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك، فجمعتها في هذا الجزء لتُستفاد، ولا يعول على إنكار أهل العناد."اهـ

ولو فرض أنه لم يرد في ذلك حديث ولا أثر، وكان مجرد اصطلاح تواطأ عليه الصوفية لما صح إِنكاره، لأن كل طائفة من طوائف العلماء كالفقهاء والأصوليين والنحاة والمناطقة وأهل المعاني اصطلحوا على ألفاظ لها معاني خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ودوّنوها في كتبهم،

1 ص 11، وهو مطبوع بتحقيق الإمام المؤلف سيدي عبد الله ابن الصديق رحمه الله.

وصارت جزءاً من عُلومهم، ولم يعترض عليهم أحد في ذلك. فما وجه تخصيص الصوفية بالاعتراض؟

على أن لفظ الأبدال اشتهر في عهد السلف، ووصف به جماعة من الأئمة، قال الحافظ السخاوي في "المقاصد الحسنة"[1] –بعد أن تكلم على بعض طرق حديث الأبدال– : "ومما يتقوى به الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة قول إِمامنا الشافعي –في بعضهم– : كنا نعده من الأبدال، وقول البخاري في غيره: كانوا لا يشكون أنه من الأبدال، وكذا وصف غيرهما من النقاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنه من الأبدال. ونقل عن يزيد بن هارون –أحد الحفاظ– قال: الأبدال هم أهل العلم، وعن الإمام أحمد: إِن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟"

وممن وُصِفَ بأنه من الأبدال: الحسن البصري، وحماد بن سلمة، وأبو توبة الحلبي شيخ أحمد بن حنبل، والإِمام الشافعي، ومحمد بن واسع، وحسان بن أبي سنان، ومالك بن دينار، ووكيع بن الجراح، وخالد بن معدان، وغيرهم كثير تجد تراجمهم في كتب الرجال وطبقات الحفاظ. ومن راجع "تذكرة الحفاظ" للذهبي، و"تهذيب التهذيب" لابن حجر، وجد فيها كثيراً من الحُفّاظ وصفوا بالبَدَلِيّة، وبعد هذا فاستمع إِلى بعض الأحاديث في هذا الموضوع.

1 – عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: «يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هارباً إِلى مكة، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة، فيُخْرجونه وهو كاره فيُبايعونه بين الرُكن والمَقام، ويبعث إِليه بعثٌ من الشام، فيُخْسَف بهم بالبيداء بين مكة

---

1 "المقاصد الحسنة" ص 45.

والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق.» الحديث، رواه أبو داود وأحمد وابن شيبة وأبو يعلى والحاكم والبيهقي[1] وهو حديث صحيح.

2- عن شريح بن عبيد قال: ذُكر أهلُ الشام عند عليّ بن أبي طالب عليه السلام —وهو بالعراق- فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: «الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب.» رواه أحمد[2] بإِسناد صحيح إِلا أن فيه انقطاعاً بين شريح وعليّ، ورواه الحسن بن عرفة وابن عساكر[3] عن شريح أيضاً قال: ذُكر أهل الشام عند عليّ عليه السلام فقالوا: يا أمير المؤمنون العنهم! فقال: لا، إِني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: «إن الأبدال بالشام يكونون، وهم أربعون رجلاً، بهم تُسقون الغيث، وبهم تُنصرون على أعدائكم، ويُصرف عن أهل الأرض البلاء والغَرَق.» وفي "المُستدرك"[4] عن عبد الله ابن زرير الغافقى أنه سمع علياً يقول: «لا تسُبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال، وسُبوا ظَلَمَتَهم»، صحّحه الحاكم وسلّمه الذهبي، والآثار عن عليّ عليه السلام في الأبدال كثيرة واردة بطرق متعددة، وهي مرفوعة حكماً لأنها مما لا مجال للرأي فيه.

---

1 **"سنن أبي داود"** ح 4286، **"المسند"** 316/6، **"مصنف ابن أبي شيبة"** 460/7، **"مسند أبي يعلى"** 369/12، **"المستدرك"** 478/4.

2 **"المسند"** 112/1.

3 **"تاريخ دمشق"** 289/1.

4 **"المستدرك"** 596/4.

3– عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمان، فبهم تُسقون وبهم تُنصرون، ما مات منهم أحد إِلا أبدل الله مكانه آخر»: قال سعيد: وسمعت قتادة يقول: لسنا نشك أن الحسن –البصري– منهم، رواه الطبراني في "الأوسط"[1]، قال الحافظ الهيثمي[2]: "إِسناده حسن".

4– عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل خليل الرحمان عزّ وجلّ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً». رواه أحمد[3]، وهو حديث حسن.

وفي مُسند البزار ومعجم الطبراني[4] عنه أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:«لا يزال في أُمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبِهِم تُمطَرون، وبهم تُنصَرون.» قال قتادة: إِني أرجو أن يكون الحسن منهم، وقوله في هذا الحديث "ثلاثون" لا ينافي أنهم أربعون كما في الأحاديث الكثيرة، لأن العدد لا مفهوم له، أو أَخبر أنهم ثلاثون ثم أعلَمَه الله بزيادتهم إِلى أربعين.

5– عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون، ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه، وأدخل من الأربعين مكانهم»، قالوا: يا رسول الله، دُلنا على

---

1 "المعجم الأوسط" 247/4.

2 "مجمع الزوائد" 62/2.

3 "المسند" 322/5.

4 كما في "مجمع الزوائد" 63/10.

أعمالهم، قال: «يعفون عَمَّن ظَلمهم، ويُحسنون إِلى من أساء إِليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله.» رواه الطبراني وأبو نعيم وتمام وابن عساكر[1]، وروى الخَلال في "كرامات الأولياء" عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلها»، وهذان الحديثان وإِن كانا ضعيفين فهما مؤيدان بالأحاديث السابقة وغيرها.

بِم استحق الأبدال تلك الرتبة؟

رتبة البدلية من الرتب العزيزة، لا تنال إِلا بشروط بينَتْها الأحاديث والآثار، فإذا ادعى شخص أنه من الأبدال، أو ادُّعي فيه ذلك، وكان خلواً من تلك الشروط علمنا أن دعواه باطلة، وعرفنا أنه مِن جملة الدُخلاء الذين شَوَهوا التصوّف وأهله بما اقترفوا من آثام، فمن شروط الأبدال ما تقدم قريباً: أنهم يَعفون عَمَّن ظَلمهم، ويُحسِنون إِلى مَنْ أساء إِليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله تعالى، وهذه صفات عزيزة قلَّ مَنْ يَتَخَلق بها، ومن شروطهم ما جاء في الحديث عن عليّ عليه السلام قال: سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الأبدال؟ قال: «هم ستون رجلاً» فقلت :يا رسول الله حِلّهم لي، قال: «ليسوا بالمتنَطِعين ولا بالمبتَدعين ولا بالمُتَعمّقين، لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكن بسخاء الأَنفُس، وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم.» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب "الأولياء"[2]، والخلال في "كرامات الأولياء"، وزاد في رواية أخرى «إِنهم يا عليّ في أُمتي أَقلُ مِنَ الكبريت الأحمر.»

---

1 "حلية الأولياء" 8/1، "تاريخ دمشق" 344/33.

2 "الأولياء" ص 12.

وجاء في حديث أنس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «إِنّ دَعامة أُمتي عَصَبُ اليمن وأَبدال الشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، ليسوا بالمتماوتين ولا بالمتهالكين ولا المتناوشين، لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، وإِنما بلغوا ذلك بالسَخَاء وصحة القلوب والمُناصحة لجميع المسلمين.» وَوَرَد عن الحسن البصري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنّ بُدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور وسَخاوة الأَنفُس والرحمة بجميع المسلمين.» رواه الحكيم الترمذي والبيهقي في "شُعب الإِيمان"[1] وغيرهما. وروى ابن أبي الدنيا في كتاب "الأولياء"[2] عن بكر بن خنيس رفعه: «علامة أبدال أُمتي أنّهم لا يلعنون شيئا أبداً.» فالمبتدعة ومن على شاكلتهم من المتنطعين والمُتَعَمقين والمُتَزَمتين لا نصيب لهم في رتبة البدلية، وكذلك المُتماوتون المُتهالكون الذين يتكلفون السَمت والوقار. نعم، ولا ينالها اللعّانون الطعّانون، سُفهاء اللسان، خُبثاءُ القلب، ولذا قال الحارث ابن حومل لرجاء بن حيوة –وهما تابعيان– : "يا رجاء، اذكر لي رجلين صالحين من أهل بيسان –بلد الشام– فإنه بلغني أن الله تعالى اختص أهل بيسان برجلين صالحين من الأبدال، لا يموت واحد إِلا أبدل الله مكانه واحداً، ولا تذكر لي مُهمّاً متماوتاً ولا طَعّاناً على الأئمة فإِنه لا يكون منهما الأبدال"، رواه ابن عساكر[3] وغيره.

فالأبدال أسخياء سمحاء، سليمو الصدور لا يحملون حقداً ولا غشاً، أعِفَّاء اللسان لا يلعَنون ولا يَسُبون وهم –إِلا جانب هذا– إِيجابيون في الحياة، يرحمون المسلمين، وينصحونهم

---

1 **"نوادر الأصول"** 263/1 ، **"شعب الإيمان"** 437/7.

2 **"الأولياء"** ص 27.

3 **"تاريخ دمشق"** 336/1.

ويسعون في إِيصال الخير لهم، وببركاتهم وتوجهاتهم يُنزلُ الغيث، ويُكْشَفُ الكَرْب، ويحصل النصر على الأعداء، لا جَرَمَ إِن كان انقراضهم في آخر الزمان إِيذاناً بانقراض الخير، وانتهاء الدنيا، كما جاء في حديث عن أنس مرفوعاً «فإِذا جاء الأمر قُبِضوا كُلهُم فعند ذلك تقوم الساعة.» رواه الترمذي الحكيم وابن شاهين وابن عدي[1] وغيرهم.

النُجَباء والنُقباء والأوتاد والغوث

هذه رتب في الولاية اصطلح عليها الصوفية، وهي مأخوذة عن سلف الأمة وأئمتها، فعن أبي الطفيل –وهو صحابي– عن عليّ عليه السلام قال :"الأبدال بالشام، والنُجباء بالكوفة"، رواه ابن عساكر[2]، وروى[3] عنه أيضا قال : "الأبدال من الشام والنُجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق"، وروى ابن عساكر أيضا[4] عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: "الأبدال بالشام، والنُجباء بمصر، والعَصب باليمن، والأخيار بالعراق"، وروى هو والخطيب البغدادي[5] عن الكتّاني قال: "النُقباء ثلاثمائة، والنُجباء سبعون، والبُدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعُمد أربعة، والغوث واحد، فمَسكَنُ النُقباء المغرب، ومسكن النُجباء مصر،

---

1 **"نوادر الأصول" ص** 261 ، **"الكامل"** 220/5.

2 **"تاريخ دمشق"** 296/1.

3 **"تاريخ دمشق"** 297/1.

4 **"تاريخ دمشق"** 297/1.

5 **"تاريخ دمشق"** 300/1، **"تاريخ بغداد"** 76/3.

ومَسْكَن الأبدال الشام، والأخيار سيّاحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته".

والعُمد بضم العين والميم هم الأقطاب، وهم أربعة في كل وقت، والعُصَب بضم العين وفتح الصاد، ويقال: عصائب كما تقدم في حديث أم سَلَمَة، طائفة من الزُهّاد كما في "النهاية"[1].

وقال ابن أبي الدنيا[2]: حدّثنا أبو حاتم الرازي –الإمام العَلَم–، حدّثنا عثمان بن مطيع، حدّثنا سفيان ابن عيينة قال: قال أبو الزناد –أحد شيوخ الإمام مالك– : لمّا ذهَبَت النبوة –وكانوا أوتاد الأرض– أخلف الله مكانهم– يعني الأنبياء– أربعين رجلاً من أُمّةِ محمدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم، يُقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى يُنشِئَ اللهُ مكانه آخر يخلفه، وهم أوتاد الأرض، قلوب ثلاثين منهم على مثل يقين إبراهيم عليه السلام، لَمْ يفضُلوا الناس بكثرة الصلاة ولا بكثرة الصيام، ولا بحُسن التخشّع ولا بحُسن الحلية، ولكن بصدق الورع، وحُسن النية، وسلامة القلب، والنصيحة لجميع المسلمين ابتغاء مرضاة الله، بصبرٍ حليمٍ، وقلبٍ رحيمٍ، وتواضعٍ في غير مذلّة، لا يلعنون أحداً، ولا يُؤذون أحداً، ولا يتطاولون على أحدٍ تحتهم ولا يُحَقّرونه، ولا يحسدون أحداً فوقهم، ليسوا بمتخشّعين ولا متماوتين ولا معجبين، لا يحبون لدنيا، ولا يحبون الدنيا، ليسوا اليوم في وحشة، ولا غداً في غفلة".

الكَـرَامـات

1 "النهاية في غريب الاثر" 243/3.

2 "الأولياء" ص 27.

اتفق أهل السُنّة على إِثبات الكرامات وأنّ اللهُ يَخُصّ بها بعض أوليائـه، للأدلـة الدّالـة عـلى وقوعها في الكتاب الكريم والسنّة الصحيحة بل المتواترة. قال الإِمام أبو الحسـن الأشـعري – إمام الأشاعرة– في كتاب "مقالات الإسـلاميين واخـتلاف المُصـلين"[1]: "جملـة مـا عليـه أهـل الحديث وأهل السُنّة الإِقرارُ بالله وملائكته وكتبه ورُسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، لا يَرُدون من ذلك شيئا...وذكر العقيـدة إِلى أن قـال: ...وأنّ الصالحين قد يجوز أن يخُصّهم اللهُ تعالى بآياتٍ تظهر عليهم...وقال في آخر العقيدة: فهذه جملة ما يأمرون به، ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقـول، وإِليـه نـذهب."اهــ ونقله الحافظ ابن القيم في كتابه "حادي الأرواح إِلى بلاد الأفراح[2]".

وقال الإِمام الحافظ القدوة محيى الدين النـووي في كتابـه "بسـتان العـارفين"[3]: "اعلَـم أنّ مذهب أهل الحقّ إِثبات كرامات الأولياء، وأنها واقعة موجـودة مسـتمرة في الأعصـار، ويـدل عليها دلائل العقول، وصرائح النقول، أما دلائل العقل فهـي أمـر يمكـن حدوثـه، ولا يـؤدي وقوعه إِلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقـدوراً كان جائز الوقوع، وأما النقول فآيات في القرآن العظيم، وأحاديث مستفيضة".اهـ

وفي "شرح المقاصد"[4] لسـعد الـدين التفتـازاني: "ظهـور كرامـات الأوليـاء، تكـاد تلحـق بمعجزات الأنبياء، وإِنكارها ليس بعجيب من أهل البدع والأهواء، وإِنما العجـب مـن بعـض

---

1 "مقالات الإسلاميين" ص290 .

2 "حادي الأرواح" ص 11.

3 "بستان العارفين" ص 30.

4 "شرح المقاصد" 133/1.

فقهاء السُنّة حيث قال فيما روي عن إبراهيم بن أدهم أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية، وفي ذلك اليوم بمكة – : أن من اعتقد جواز ذلك يكفر، والإنصاف ما ذكره الإمام النسفي حين سُئل عمّا يُحكى أنّ الكعبة كانت تزور أحداً من الأولياء، هل يجوز القول به؟ فقال: نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة."اهـ

وليت شعري ماذا كان يقول ذلك الفقيه المتسرع إلى الإكفار لو رأى مخترعات اليوم، وشاهد الطائرة تنقل الشخص في بضع ساعات مسافات كانت تقطع في شهور، فإذا كان العلم وصل إلى هذا وأكثر منه فكيف نستبعده على قدرة الله تعالى؟!! ومما يعاب على فقهاء الحنفية تسرُعَهم إلى الإكفار لأسباب بعيدة عن الكفر، ومن قرأ باب الردّة في كتبهم رأى العجب!! من ذلك قولهم من صَغّر عِمامَة العالِم فقال عُمَيمة فإنه يكفر!! لأنه صغّر ما عظّم الله!! ومما ثبت بالشُهرة ما حكاه العلاّمة أحمد بابا التنبكتي المالكي في "نيل الابتهاج بتطريز الديباج": "عن الشيخ عبد الخالق التونسي، عن شيخه شعيب بن الحسن الأندلسي الشهير بأبي مدين الغوث – وهو شيخ ابن العربي الحاتمي– قال: سمعت أن رجلاً يُسمّى موسى الطيار يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وكان رجل يأتيني عند طلوع الفجر فيسألني عن مسائل الناس، فوقع لي ليلة أنه موسى الطيار الذي أسمع به، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل فإذا هو الذي يسألني، فقلت له: أنت موسى الطيار، قال نعم، ثم سألني وانصرف، ثم جاءني مع آخر، فقال لي: صليت الصبح ببغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في الصبح فأعدنا معهم وبقينا في مكة حتى صلينا الظهر فجئنا القدس، فوجدناهم في الظهر، فقال صاحبي هذا: نُعيد معهم؟ فقلت: لا، فقال: ولِم أعدنا الصبح بمكة؟ فقلت له: كذلك كان شيخي يفعل، وبه أمرنا، فاختلفنا. قال أبو مدين:

فقلت لهم: أما إِعادة الصبح بمكة فإنها عين اليقين، وببغداد علم اليقين، وعين اليقين أقوى من علم اليقين، وصلاتكم بمكة وهي أم القرى فلا تعاد في غيرها، قال: فقنعا به وانصرفا."

والمقصود أن كرامات الأولياء أجمع على إِثباتها علماء السُنّة، ووافقهم من المعتزلة أبو الحسين البصري، وقد أفرد هذا الموضوع بالمؤلفات الكثيرة، وكتابنا "الحجج البينات في إِثبات الكرامات" مهم جداً ينبغي مراجعته، ففيه ما لا يوجد في غيره، مع تخريج الأسانيد، وتوخي الصحة بغاية الدقة ونشير هنا إِلى بعض الأدلة توفية للبحث حقه.

1 – الأمر الخارق للعادة إِن ظهر على يد مدّعي النبوة فإمّا أن يكون قبل النبوة أو بعدها، فإن كان قبلها كَشَق صدره الشريف، وإِظلال الغمامة له في مسيره إِلى الشام، سُميَ إِرهاصاً وإِن كان بعدها فإِما أن يكون مصحوباً بالتحدي كالقرآن وانشقاق القمر، فيُسمى معجزة. وإما أن يكون غير مصحوب بالتحدي كحنين الجذع ونبع الماء من الأصابع الشريفة، فيُسمى آية. وإِن ظهر الخارق للعادة على يد مدّعي النُبوة بخلاف مُراده سُميَ إِهانة، مثل ما روي أن مُسيلمة الكذاب دعا لأعور بأن يفتح الله عينه، فعمي. ومسح بيده رأس يتيم، فقرع. وَبَلَغَهُ أن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تفل في بئر فكَثُر ماؤها وعذُب، بعد أن لم يكن كذلك، فتفل هو في بئر ليعذب ماؤها فصار ملحاً أُجاجاً. وإِن ظهر الخارق على يد مؤمن صالح فهو الكرامة، أو على يد فاسق كالساحر مثلاً فهو استدراج. وقد يقع الخارق لبعض عوام المسلمين تخليصا له من محنة أو مكروه، ويسمى معونة.

2 – قولهم: "ما وقع معجزةً لنبي، جاز أن يكون كرامة للوليّ " محمول على الآيات التي لم يقع بها التحدي، أما المعجزة التي وقع بها التحدي كالقرآن الكريم فلا. نَبّه على هذا المعنى العلاّمة الأُبِّي في "شرح مُسلم"، ونحوه قول القشيري: "إِنّ كرامات الأولياء لا تنتهي إِلى نحو

ولد دون والد"اهـ يشير إلى ولادة عيسى عليه السلام فهي آية من الله لنبيه ولأُمه بسببه كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[1] وقال تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[2].

3 – في القرآن الكريم آيات تُثبت كرامات الأولياء، منها قصة أصحاب الكهف ونَوْمِهم أكثر من ثلاثة قرون...الخ ما قَصّه اللهُ من خبرهم العجيب ولم يكونوا أنبياء، ومنها قصة مريم عليها السلام وأن زكريا عليه السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] وقد كانت صِدّيقة بنصّ القرآن، ومنها في قصة سليمان عليه السلام قول الذي عنده علم من الكتاب ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[4] وأتى به في غمضة عين أي سرير ملكة سبأ. وأما الأحاديث فكثيرة جداً نذكر منها عشرة كلها صحيحة:

1 – عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسَدّت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما –أي لا أقدم في شرب اللبن عليهما– أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما

---

1 **المؤمنون**: 50.

2 **مريم**: 21.

3 **آل عمران**: 37.

4 **النمل**: 39.

غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إِن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: قال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إِليَّ فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألّمت بها سنةٌ من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إِذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إِلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إِليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إِن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: وقال الثالث: اللهم استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال لي: يا عبد الله أد إِليَّ أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإِبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إِني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا، اللهم إِن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فانطلقوا يمشون». رواه البخاري ومسلم[1].

2- عن أبي هريرة، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال: «لم يتكلم في المهد إِلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إِسرائيل رجل يقال له جُريج كان يُصلي جاءته أُمه فدعته، فقال: أُجيبها أو أُصلي، فقالت: اللهم لا تُمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جُريج في صومعته فتعرضت له

---

1 "صحيح البخاري" ح 2102، "صحيح مسلم" ح 2743.

امرأة فكلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقالت: من جُريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبّوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي. وكانت امرأة تُرضع ابناً لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها فأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمُصّه.» قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يمُص أصبعه، «ثم مَرّ بأَمَة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها وقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت له ذلك، فقال: الراكب جبّارٌ مِنَ الجبابرة، وهذه الأمَة يقولون: سرقت زَنتْ، ولم تفعل.» رواه البخاري ومسلم[1].

3– عن أبي هريرة، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إِسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار، فقال ائتني بالشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيداً، قال:فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إِليه إِلى أجل مُسمّى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يُقدم عليه للأجل الذي أجَّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إِلى صاحبه، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إِلى البحر فقال: اللهم إِنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلا، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإِني جهدت أن أجد مركباً أبعث إِليه الذي له، فلم أقدر، وإِني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى وَلَجَت فيه ثم انصرف، وهو في ذاك يلتمس مركباً يخرج إِلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإِذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها حطباً لأهله، فلما نشرها وجد

1 "صحيح البخاري" ح 3253، "صحيح مسلم" ح 2550.

المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إِليّ بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت الخشبة، وانصرف بالألف دينار راشداً.» رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن حبان[1] وغيرهم.

4- عن أبي هريرة أيضاً أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحوِّل الماء لمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إِني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسْقِ حديقة فلان، لا سمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إِذ قلت هذا، فإِني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه.» رواه مسلم في "صحيحه"[2].

5- عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لما أُسريَ بي مرت بي رائحةٌ طيبة، فقلت: ما هذا الرائحة؟ قالوا ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مشطها من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربي هو ربك ورب أبيك، قالت: أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم، فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها، فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً

---

1 "صحيح البخاري" ح 2169، "المسند" ، "المسند" 348/2.

2 "صحيح مسلم" ح 2984.

فيهم، فقال: قَعي يا أُمَّهُ ولا تقاعسي، فإنّك على الحق.» رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار وأبو يعلى والبيهقي، وصَحَّحَهُ الحاكم وابن حبان[1] وغيرهما.

6- عن أبي سعيد الخدري، أنّ أُسيد بن حضير بينما هو يقرأ ليلة في مربده إذ جالت فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضاً، قال أُسيد: فخشيت أن تطأ يحيى –ابنه- فقمت إليها فإذا هو مثل الظُلة فوق رأسي، فيها أمثال السرج عرجت في الجوّ حتى ما أراها، فغدوت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقلت: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدٍ لي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اقرأ يا ابن حضير» قال: فقرأت ثم جالت أيضا، فقال: «اقرأ يا ابن حضير» قال: فقرأت ثم جالت أيضا، فقال: «اقرأ يا ابن حضير» قال: فانصرفت، وكان يحيى قريبا منها فخشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظُلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تلك الملائكة كانت تتسمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم» رواه الشيخان[2]، ورواه مسلم من حديث البراء بن عازب.

وكان أسيد بن حضير حَسنَ الصوت كما في رواية أبي عبيد عن أبي بن كعب، وجاء في رواية الإسماعيلي أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال له: «اقرأ أُسيد فقد أُوتيت من مزامير آل داود»، وكان يقرأ في تلك الليلة سورة البقرة كما في رواية البخاري[3].

---

1 "المسند" 309/1، "مسند البزار" 263/10 ، "مسند أبي يعلى" 394/4، "شعب الإيمان" 243/2، "المستدرك" 538/2، "صحيح ابن حبان" 163/7.

2 "صحيح البخاري" ح 4730، "صحيح مسلم" ح 796.

3 "صحيح البخاري" ح 4730.

ووقع نظير هذه الكرامة لصحابيٍّ آخر اسمه ثابت بن قيس بن شماس، فروى أبو عبيد في "فضائل القرآن"[1] عن جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة: أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تُزهر مصابيح؟! قال: «فلعلّه قرأ سورة البقرة» قال: فسُئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة.

7– عن أنس، أن أُسيد بن حضير ورجلاً من الأنصار تحدثا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى ذهب من الليل ساعة في ليلةٍ شديدةِ الظُلمة، ثم خرجا وبيد كلٍ منهما عصاه، فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إِذا افترقت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر، فمشى كل منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله؛ رواه عبد الرزاق وهذا لفظه وأحمد والبخاري والحاكم[2] وغيرهم، وفي رواية للأخيرين تعيين الرجل من الأنصار بأنه عباد بن بشر.

8– روى مالك[3]، عن عبد الرحمان بن أبي صعصعة أنّه بَلَغَه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاري –والد جابر– كانا في قبرٍ واحد– وهما ممن استشهد يوم أُحد، فحفر السيل قبرهما، فحُفر عليهما ليغيرا من مكانهما فوُجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرح فوضع يده على جرحه، فدفن وهو هكذا فأشيلت يده عن جرحه ثم أُرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد وبين ما حفر عليهما ستة وأربعون سنة.

وروى البغوي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كتب معاوية إِلى عامله بالمدينة أن يجري عينا إِلى أُحد فكتب إِليه عامله: إِنها لا تجرى إِلا على قبور الشهداء فكتب إِليه: أن أنقذها.

---

1 "فضائل القرآن" 100/1.

2 "مصنف عبد الرزاق" 280/11، "المسند" 137/3، "صحيح البخاري" ح 3594، "المستدرك" 326/3.

3 "الموطأ" 470/2.

قال جابر: فرأيتهم –يعني شهداء أُحُد– يخرجون على رقاب الرجال كـأنهم رجـال نـوم حتـى أصابت المسحاة قدم حمزة رضي الله عنه فانبعثت دماً.

وهذه القصة بلغت حد الاستفاضة أو التواتر لأن عامل معاوية نادى في المدينة يحضّ الناس أن يخرجوا لنقل موتاهم فخرج مَنْ لا يُحصى مِـنَ الأنصـار وغـيرهم وشـاهدوا هـذه الكرامـة العجيبة بعد بضع وأربعين سنة من استشهادهم رضي الله عنهم.

9– روى مالك في "الموطـأ[1]" بإِسـناد عـلى شرط الصـحيحين، أن أبـا بكـر رضي الله عنـه استرجع عند وفاته أرضاً كان وهبها لعائشة رضي الله عنها وقال –يطيب خاطرهـا–: إنـما همـا أخواك وأختاك، أي لم أسترجع الأرض الموهوبة إِلا لمصلحة الورثة الذين هـم إِخوتـك. قالـت لأبيها رضي الله عنهما: إِنما هي أسماء فمن الأخرى؟ –أي ليس لي أخت غير أسماء فمن الثانيـة؟ فأجابها الصدّيق رضي الله عنها: ذو بطن بنت خارجة– هي امرأته وكانت حاملاً– أراها جارية فولدت بعد وفاته بنتا.

10 – روى الطبراني بإِسناد رجاله رجال الصحيح –كما قال الحافظ الهيثمي[2]– عن سعيد بن عبد العزيز، "أن عمار بن ياسر رضي الله عنهما أقسم يوم أُحُد فهزم المشركون وأقسم يوم الجمل –اسم موقعة– فغلبوا أهل البصرة وقيل له يوم صِفّين –بكسر الصاد والفاء المشددة موضع كان فيه قتال بين عليّ عليه السلام وبين معاوية– لو أقسمت؟ فقال: لو ضربونا بأسيافهم حتى نبلـغ سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحق وهم على الباطل فلم يقسم، فقتل يؤمئـذ؛ وقـال يـوم أُحُـد: أقسمت يا جبريل ويا ميكال لا يغلبنا معشر ضلال، إِنا على الحق وهم جهال".

---

1 "الموطأ" 752/2.

2 "مجمع الزوائد" 295/9.

وقد أخرج الطبراني في "الأوسط"[1] عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «كم من ذي طمرين لا ثوب له لو أقسم على الله لأبره منهم عمار بن ياسر».

وباب الكرامات بحر خضم مترامي الأطراف، وفي كتابنا "الحجج البينات في إثبات الكرامات" استيفاء بالغ لكثير من أنواعها المتعددة فعليك بقراءته.

حلقات الذكر

للحافظ السيوطي رضي الله عنه في هذا الموضوع رسالة اسمها "نتيجة الفكر في الجهر بالذكر" قال في أولها[2]: "الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، سألتَ أكرمك الله عما اعتاده السادة الصوفية من عقد حِلق الذكر والجهر به في المساجد ورفع الصوت بالتهليل، وهل ذلك مكروه أو لا؟ الجواب: أنه لا كراهة في شئ من ذلك، وقد وردت أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر، وأحاديث تقتضي استحباب الإِسرار به، والجمع بينهما: أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، كما جمع النووي بمثل ذلك بين الأحاديث الواردة باستحباب الجهر بقراءة القرآن، والأحاديث الواردة باستحباب الإِسرار بها". ثم أورد خمسة وعشرين ما بين حديث وأثر، نقتطف منها ما يلي:

1 – روى البخاري[3] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إِذا ذكرني، فإِن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإِن ذكرني

---

1 "المعجم الأوسط" 25/6.

2 "نتيجة الفكر" ص 2.

3 "صحيح البخاري" ح 6970.

في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه». قال: والذكر في الملأ لا يكون إِلا عن جهر، قلت: والحديث رواه بقية الستة إِلا أبا داود[1].

2- روى البزار[2] بإِسناد صحيح، عن ابن عباس، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إِذا ذكرتني خالياً ذكرتك خالياً وإِذا ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير من الذين تذكرني فيهم».

3- روى الشيخان[3] واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنّ لله تبارك وتعالى ملائكةً سيّارة فُضلاء يبتغون مجالس الذكر، فإِذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء، فإِذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إِلى السماء، فيسألهم الله عزّ وجلّ –وهو أعلم- من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك في الأرض، يُسبحونك ويُكبرونك ويهللونك ويَحمدونك ويسألونك، قال: فما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب، قال: وكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: وممّ يستجيروني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا يا رب، قال: فكيف لو رأوا ناري، قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال: يقولون: يا رب فيهم فلان عبدٌ خطّاء، إِنما مر فجلس معهم، فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

---

1 "صحيح مسلم" ح 2670، "سنن الترمذي" ح 3603، "سنن ابن ماجه" 2833.

2 "مسند البزار" 285/5.

3 "صحيح البخاري" ح 6045، "صحيح مسلم" ح 2689.

4- روى البيهقي[1] عن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِذا مررتم برياض الجنة فارتَعوا» قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «حِلق الذكر». قلت: رواه الترمذي وحسّنه.

5- روى الطبراني وابن جرير[2]، عن عبد الرحمان بن سهل بن حنيف قال: لمّا نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم -وهو في بعض أبياته- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[3] الآية،فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم».

وروى أحمد في "الزهد" عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فَمَرَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فكفوا، فقال: «ما كنتم تقولون؟» قلنا: نذكر الله، قال: «إِني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها» ثم قال: «الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم»؛ قلت: للحديث طرق كثيرة.

ثم قال السيوطي: إِذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتّة في الجَهرِ بالذكر، بل فيه ما يدل على استحبابه إِما صريحاً أو التزاماً، وأما معارضته بحديث «خير

---

1 **"شعب الإيمان"** 398/1 ، **"سنن الترمذي"** 3510.

2 **عزاه إلى الطبراني الهيثمي في "مجمع الزوائد"** 21/7، **"تفسير الطبري"** 235/15.

3 **الكهف**:28.

الذكر الخفي»[1] فالجمع بينهما بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى به مصلون، أو نيام، والجهر في غير ذلك أفضل، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يُوقظ قلب الذاكر ويجمع همّه، ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم، ويزيد في النشاط، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث.

فإن قلت: قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾2. قلت: الجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنها مكّية كآية الإسراء ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[3] وقد نزلت حين كان النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يجهر بالقرآن، فيسمعه المشركون فيسُبون القرآن ومن أنزله، فأمر بترك الجهر سداً للذريعة. كما نُهِيَ عن سب الأصنام لذلك بقوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾4. وقد زال هذا المعنى الآن، أشار إلى ذلك ابن كثير في "تفسيره"[5].

الثاني: أنّ جماعة من المفسرين منهم عبد الرحمان بن زيد بن أسلم وابن جرير حملوا الآية على الذاكر حالة قراءة القرآن، وأنه أمرٌ له بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنده الأصوات، ويؤيده اتصالها بقوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾6.

---

1 رواه ابن حبان في "صحيحه" 91/3.

2 الأعراف: 205.

3 الإسراء: 110.

4 الأنعام: 108.

5 "تفسير ابن كثير" 165/2

6 الأعراف: 204.

الثالث: ما ذكره الصوفية أنّ الأمر في الآية خاص بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الكامل المُكمل، وأما غيره ممن هو محل الوساوس والخواطر الردئة فمأمورٌ بالجهر لأنه أشد تأثيراً في دفعها. فإن قلت: فقد قال تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] وقد فسر الاعتداء بالجهر في الدعاء، قلت: الجواب من جهتين: أحدهما: أن الراجح في تفسيره أنه تجاوز المأمور به، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه والحاكم[2] وصَحَّحَه عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، فقال: إني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء»؛ فهذا تفسير صحابي وهو أعلم بالمُراد.

الثاني: على تقدير التسليم، فالآية في الدعاء لا في الذكر، والدعاء بخصوصه الأفضل فيه السر، لأنه أقرب إلى الإجابة، ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا[3]﴾، ومن ثَم استُحِب الإسرار بالاستعاذة في الصلاة اتفاقاً، لأنها دعاء. فإن قلت: فقد نُقل عن ابن مسعود أنه رأى قوما يهللون برفع الصوت في المسجد، فقال: ما أراكم إلا مبتدعين، حتى أخرجهم من المسجد؟ قلت: هذا الأثر يحتاج إلى بيان سنده، ومن أخرجه من الأئمة الحفاظ في كتبهم[4]، وعلى تقدير

---

1 الأعراف: 55.

2 "سنن ابن ماجه" ح 3864، "المستدرك" 724/1.

3 مريم: 3.

4 روى ابن وضاح في "البدع والنهي عنها" ص 11، عن سيار أبي الحكم، أن عبد الله بن مسعود، حدِّث: "أَن أُناساً بالكوفة يسبحون بالحصى في المسجد، فأتاهم وقد كَوَّم كُلُّ رجل منهم بين يديه كومةَ حصى، فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد، ويقول: لقد أحدثتم بدعة ظلما، أو قد فَضَلْتم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم علْماً". وهذا حديث ضعيف لأن فيه انقطاعا، فإن سياراً لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه.

ثبوته فهو مُعارضٌ بالأحاديث الكثيرة الثابتة المتقدمة، وهي مقدمة عليه عند التعارض، ثم رأيت ما يقتضي إِنكار ذلك عن ابن مسعود، قال الإمام أحمد في كتاب "الزهد": حدّثنا حسين بن محمد المسعودي، عن عامر بن شقيق، عن أبي وائل، قال: "هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر، ما جالست عبد الله مجلساً قط إِلا ذكر الله فيه"، وأخرج أحمد في "الزهد" عن ثابت البناني، قال: "إِنّ أهل ذكر الله ليجلسون إِلى ذكر الله وإِنّ عليهم من الآثام أمثال الجبال، وإِنهم ليقومون من ذكر الله تعالى ما عليهم منها شئ".

هذا ملخص رسالة "نتيجة الفكر"، وهي مطبوعة بتعليقاتي عليها، فليراجعها من أرادها.

"الذكر بالاسم المفرد"

اعترض بعض الفقهاء على الصوّفية عنايتهم بالاسم المفرد، ولهجهم به، زاعما أن الذكر به بدعة، وأنه لا يشتمل على جملة مفيدة مثل الأذكار الواردة نحو لا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر، وإِلى غير ذلك، وقد تولى الرد على هذا الاعتراض مولانا الشيخ الإِمام الوالد رضي الله عنه في بحثٍ وافٍ كاف، ننقله بنَصّه، من مجموعة فتاواه وبحوثه في علوم مختلفة، قال –تغمده الله برضوانه–: "الحمد لله، ما نقله الحطاب آخر باب الردّة مِن شرحه لمختصر خليل من أن عزّ الدين بن عبد السلام سُئل عمَن يذكر بصيغة: الله الله، مقتصراً على ذلك، هل هو مثل سبحان الله، والحمد لله؟ الخ. فأجاب بقوله: هذه بدعة لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ولا عن أحد السلف. اِلخ مردودٌ، من وجوه:

أولها: ما ورد في "صحيح مسلم"[1] من قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من يقول: الله، الله.» وفي رواية له «حتى لا يقول أحد: الله. الله»؛ فإن هذا الحديث الشريف شاهد لذكره وتكراره كما ترى، ولا سيما على رواية النصب، وقد رد جماعة من المحققين به على ابن عبد السلام، منهم سيدي عبد القادر الفاسي، والعارف الشعراني، وابن عبد السلام بناني، وجماعة يطول ذكرهم.

ثانيها: أنا لا نسلم أن الذكر لا يكون إلا جملة، فقد قال تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [2] بناء على أن المُراد بالدعاء الذكر والتسمية.

ثالثها: أنّا وإن سلّمنا أن الذكر إنما يكون جملة فقول الذاكر: الله، الله جملة تقديرا، إذ معناه: يا الله، أو الله أعظم، أو الله أكبر، أو نحو ذلك.

وحذف النداء مع المندوب والمضمر والمستغاث جائز اتفاقا كما في الألفية.

رابعها: ما ورد في بعض الأحاديث من أن العبد إذا قال: الله، يشهد له كل من يسمعه، ذكره ابن زكرى والعهدة عليه.

خامسها: تواطؤ السادات الصوّفية على ذكره والاستهتار به –أي الولوع به– سلفهم وخلفهم، وهم من الصدّيقين. وقد قالوا: إذا اختلفت أقاويل العلماء فعليك بما قاله الصدّيقون منهم، لمزيد نورهم، وكمال عرفانهم، وقربهم من الله ورسوله، والسادات الصوّفية لا خلاف عندهم في ذكره، بل لا يصح عندهم الفتح والسير في المقامات إلا بواسطته، ولهم فيه تآليف

---

1 "صحيح مسلم" ح 148.
2 الأعراف: 178.

وترتيبات، على حسب الأحوال والمقامات. قال العارف المحقق شهاب الدين أحمد الغزالي: "ما دمت ملتفتا إِلى ما سوى الله فلا بد لك من النفي والإِثبات بلا إِله إِلا الله، وما دمت تعتمد على رياسة العلم والجاه، فلا بد لك من النفي والإِثبات بلا إِله إِلا الله، وما دمت ترى في الوجود سواه، فلا بد من لا إِله إِلا الله، فإِذا غبت في الكل عن الكل استوحشت من نفي لا إِله، ووقفت على إِثبات إِلا الله، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

وقال العارف الشعراني في "المنن"[2]: "ومِما منّ الله به عليَّ: مواظبتي –أول دخولي لطريق القوم– على ذكر الله بلفظ الجلالة: الله، أربعاً وعشرين ألف مرة كل يوم وليلة على عدد الأنفاس الواقعة في الليل والنهار، ليكون حكمي –إن شاء الله– حُكم مَن لَم يغفل عن الله نفساً واحداً".

ثم قال: "قال الشيخ محيى الدين: وينبغي لمن يذكر الله بلفظ الجلالة أن يحقق الهمزة ويسكن الهاء، فإِن فتَح الهاء وأسقط الهمزةَ ووصل الهاء باللام المدغمة كان تلفظه بها كتلفظه بكلمة: هلا. فلا يُفتح عليه بشيء، لأنه تعالى ما هو مُسمّى بذلك الاسم." ثم قال: "وصورة الذكر بالجلالة أن يقول: الله، الله. حتى ينقطع نفسه".اهـ.

وذكر أبو علي الدقّاق أن رجلا كان يقول: الله، الله دائماً، فأصاب حجر رأسه فشجه فقطر منه الدم وكتب على الأرض: الله، الله. وبقي النوري في منزله سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم وهو يقول: الله، الله، الله، فأعلم الجُنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا؟ فقالوا له: إِنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلا. وسُئل الشبلي: لم تقول: الله، الله، ولا تقول: لا إِله إِلا الله؟ فقال: لا أبغي له ضدا، فقال السائل: أريد

---

1 الأنعام: 91 .

2 ص 177.

أعلى من هذا، فقال أخشى أن أوخذ بين وحشية النفي والإثبات. فقال: أريد أعلى من هذا فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [1] فزعق السائل ومات، فتعلق أولياؤه بالشبلي فقال لهم: روح دعيت فسمعت فلبت وأجابت فما ذنبي؟ فقال الخليفة: خلّوا سبيله، لا ذنب له. قال العارف أبو الوفاء: وتعليل هذا المذهب أن نفي الشئ إنما يحتاج إليه عند حضور ذلك الشئ بالبال فمن لا يخطر بباله شريك لا يكلف نفي الشريك، والكامل لا يخطر بباله ولا بخياله إلا الله فيكفيه أن يقول: الله، الله.ا هـ

وقال القطب الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: "ليكن ذكرك الله، الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور، وليس النور مقصوداً لذاته، بل لما يقع به من الكشف والعيان، فينبغي الإكثار من ذكره، واختياره على سائر الأذكار لتضمنه لجميع ما في لا إله إلا الله من العقائد والعلوم والآداب والحقوق، فإنه يأتي في: الله، وفي: هو، ما لا يأتي في غيرهما من الأذكار".اهـ

قال الشيخ زروق: "ولهذا اختاره المشايخ ورجّحوه على سائر الأذكار، وجعلوا له خلوات، ووصلوا به إلى أعلى المقامات والولايات، وإن كان منهم من اختار في الابتداء: لا إله إلا الله وفي الانتهاء: الله، الله".اهـ

وقال ابن حجر في "الفتاوى الحديثية[2]": "ذكرُ لا إله إلا الله أفضل من ذكر الجلالة مطلقاً بلسان أهل الظاهر، وأما عند أهل الباطن فالحال عندهم يختلف باختلاف حال السالك، فمَن هو في ابتداء أمره ومقاساة شهود الأغيار وعدم انفكاكه عن التعلق بها يحتاج إلى النفي والإثبات

---

1 الأنعام: 91.

2 "الفتاوى الحديثية" ص 211.

حتى يستولى عليه سلطان الذكر، فإِذا استولى عليه فالأولى له لزوم الإِثبات أعنى: الله. الله. ا هـ باختصار.

وقال الجُنيد: "ذاكر هذا الاسم ذاهبٌ عن نفسه متصلٌ بربه، قائمٌ بأداء حقه، ناظرٌ إِليه بقلبه، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته".اهـ قال الشيخ محيى الدين: "ومن أراد أن يفتح عليه بذكر هذا الاسم الشريف فليتخذ خلوة وليترك سائر الأذكار والأوراد غيره، ولا يذكره من حيث إِنه يدل على العين فقط، بل لا بد أن يستحضر أنه يذكر من لا تحصره الأكوان، ومَنْ له الوجود المطلق التام، فبهذا الاستحضار تحصل الثمرة التي هي النور الذي يقع به الشهود والعيان، وهذا الاستحضار هو المعبّر عنه بالبساط".اهـ

وفي صلاة القطب مولانا عبد السلام بن مشيش: "الله، الله، الله" ثلاث مرات، أفيجترئ أحدٌ أنْ يفوه في ذلك بعيب؟! أو طعن وريب؟! كلا، وكيف؟ وأصول الشريعة لا تأباه، ولا تدل على خروجه عن ذكر الله لفظا ولا معنى، إِلى غير هذا من نصوص أولياء الله الدالة على استحباب ذكره.

قال شيخ الشيوخ سيدي عبد القادر الفاسي –بعد كلام في هذا المعنى-: "ولا يخفى هذا على من له ممارسة باصطلاحهم، فيكفينا التسليم والتصديق لما قصرت عنه مداركنا من مذاهبهم:

فاشدد يديك على تسليم ما فعلوا وظن خيراً ولا تعبأ بمن عذلا

إِذ التصديق بطريقهم ولاية، والاعتراض عيلهم جناية، قال: وليس في كلام عزّ الدين تصريح بإنكار أو بغيره بل غاية ما قال: إِنه لم ينقل عن السلف، وكم من أشياء لم تنقل عن

السلف وهي مشروعة، إِذ البدعة تنقسم إِلى الأقسام الخمسة كما هو معلوم، فلا ينبغي الإِنكار على من يذكر هذا الاسم الشريف، ولا التوقف فيه.اهـ كلام سيدي عبد القادر الفاسي وهو وحده كافٍ في رد كلام ابن عبد السلام، والله تعالى أعلم.ا هـ

قلت: ثبت عن بلال رضي الله عنه الذكر بالاسم المفرد، قال أبو داود: قرئ على سلمة بن شبيب وأنا شاهد، قال: حدّثنا عبد الرازق، حدّثنا معمر، عن عطاء الخراساني قال: كنت عند سعيد بن المُسيّب فذكر بلالا فقال: كان شحيحاً على دينه، فإِذا أراد المشركون أن يقاربهم قال: الله، الله. وذكر بقية الحديث في شراء أبي بكر رضي الله عنه بلالا وإِعتاقه.

وثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أول من أظهر الإِسلام سبعة، رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر رضي الله عنه فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وأصهروهم في الشمس، فما منهم إِنسان إِلا وقد واتاهم على ما أرادوا إِلا بلالا فإِنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه. فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد. وهذا خبر مشهور ورد في كتب السيرة بطرق، فكيف يقال بعد هذا: إِنّ الذكر بالاسم المفرد لم ينقل عن السلف؟!! على أن الأوامر التي حضّت على ذكر الله في الكتاب والسنّة –وهي كثيرة- تشمل الذكر بالاسم المفرد لا محالة، فاشتراط وروده بعينه –رغم شمول مطلق الأوامر له- تعسُّف يأباه الإِنصاف، ونريد أن نقول –زيادة على ما تقدم-: إِن الشارع أذن في إِنشاء أذكار من بنات أفكار الذاكر، بل حضّ عليها. فروى الطبراني في "الأوسط"[1] بسندٍ جيد كما قال الحافظ الهيثمي[1]

---

1 "المعجم الأوسط" 170/9.

عن أنس، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مَرَّ بأعرابيّ وهو يدعو في صلاته ويقول: يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وَعرِه، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتيمه وخير أيامي يوم ألقاك فيه؛ فلما فرغ من صلاته دعاه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وَوَهَبَ له ذهباً أهدي له من بعض المعادن، وقال: «وهبت لك الذهب بحسن ثنائك على الله عزّ وجلّ.» فتأمل هذا الحديث تجدْه يأذن في إنشاء أذكار وأدعية من غير تقيد بالوارد، بل يمكننا أن نقول: كل ما أنشأه الصوفية من أذكار وأوراد وأدعية فهو من قبيل الوارد لدخوله في عموم هذا الحديث، وبالله التوفيق.

موقف العلماء من الصوفية

علمت –فيما سبق أول الكتاب– أن الدين ينبني على ثلاثة أركان: الإيمان، الإسلام، الإحسان، وأن التصوّف هو مقام الإحسان، وأن المقامات والأحوال التي يتكلم فيها الصوفية كلها واردة في الكتاب أو السنّة بالعبارة الصريحة، أو الإشارة الواضحة، وأن الصحابة –خصوصاً منهم أهل الصّفة– كانوا متخلقين بأخلاق الصوفية، وكذلك التابعون وتابعوهم وهلم جرا، وعلى هذا فلا عجب أن يكون موقف علماء المسلمين من الصوفية موقف التأييد والتعاضد والمساندة، وكان الأئمّة أهل الفقه والكلام، وأكابر أعلام الإسلام –كما يقول الحافظ

---

1 "مجمع الزوائد" 158/10.

السيوطي- يصحبون أهل الطريق، ويحضرون مجالس وعظهم ويبالغون في الثناء عليهم، وينقلون عباراتهم وإِشاراتهم في دروسهم وتصانيفهم.

وإِليك بعض الأدلة على ذلك:

1- نقل الإِمام زروق في "قواعده"[1] والتتائي عن الإِمام مالك أنه قال: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوّف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".اهـ

فانظر كيف اعتبر الإِمام مالك رضي الله عنه التصوّف والفقه جزأين متلازمين لا يتم أحدهما إِلا بالآخر.

2- قال الإِمام الشافعي رضي الله عنه: "صحبت الصوّفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية: سوى ثلاث كلمات، قولهم: الوقت سيف إِن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إِن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة" نقله الحافظ السيوطي وغيره، والإِمام الشافعي يعدُّه الصوفية من الأبدال.

3- روى الحاكم والخطيب[2] بسند صحيح عن إِسماعيل بن إِسحاق السراج قال: قال لي أحمد بن حنبل: يبلغني أن الحارث -هذا يعني المحاسبي- يكثر الكون عندك، فلو أحضرته منزلك وأجلستني في مكان أسمع كلامه، ففعلت، وحضر الحارث وأصحابه، فأكلوا وصلّوا العتمة، ثم قعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت إِلى قريب نصف الليل، ثم أخذ الحارث في الكلام، وكأن على رؤسهم الطير، فمنهم من يبكي، ومنهم من يخرّ، ومنهم مَن يزعق، وهو في

---

1 ص 77.

2 "تاريخ بغداد"214/8 .

كلامه، فصعدتُ الغرفة فوجدت أحمد قد بكى حتى غشي عليه، فلما تفرقوا قال أحمد: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا، وعلى هذا فلا أرى لك صحبتهم"اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في "تهذيب التهذيب"[1]: إنما نهاهُ عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم، فإنه مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ويخاف على من يسلكه ألا يوفيه حقه ا هـ.

وقال الحافظ الخطيب أيضاً في "تاريخ بغداد"[2]: أخبرنا أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري، أنبأنا محمد بن الحسين السلمي قال: سمعت محمد بن الحسن البغدادي يحكي عن ابن الأعرابي قال: قال أبو حمزة: كان الإمام أحمد بن حنبل يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفيّ؟ قلت: كفى بهذا القول من الإمام أحمد رداً على مُقلّديه كابن تيمية وأذنابه الذين ينكرون على الصوفية، ويرمونهم بالكفر والإلحاد.

هذا، وأما ما اشتهر بين كثير من الناس أن الشافعي وأحمد اجتمعا بشيبان الراعي وسألاه عن أشياء في الصلاة والزكاة، فليس بصحيح، لأن الإمامين لم يدركا زمن شيبان بل كانا بعده كما في "المقاصد الحسنة"[3] للحافظ السخاوي.

4- كان أبو العباس بن سريج -أحد أئمة الشافعية- يحضر مجلس الجُنيد ويسمع كلامه، ويقول: "أشهد أنّ لهذا الكلام صولةٌ ليست بصولة مبطل"، وروى القُشيري في "الرسالة"

---

1 "تهذيب التهذيب" 117/2.

2 "تاريخ بغداد" 390/1.

3 "المقاصد الحسنة" ص 746.

والخطيب في "تاريخ بغداد"[1] من طريق أبي الحسين علي بن إِبراهيم الحداد قال: "حضرت مجلس أبي العباس بن سريج فتكلم في الفروع والأصول بكلامٍ حسنٍ أُعجبت بـه، فلـما رأى إِعجـابي قال: هذا ببركة مُجالستي لأبي القاسم الجُنيد".

5- ذو النون المصري أحد أئمة الصوفيّة وعظمائهم، قال الحافظ أبـو سـعيد بـن يـونس في "تاريخ مصر": "كان عالماً فصيحاً حكيماً أصله من النوبة"، وقال الحـافظ مسـلمة بـن قاسـم: "كان رجلاً صالحاً زاهداً عالماً ورعاً متفنناً في العلوم واحداً في عصره، ولم يسلم من نقد الجَهلـة واعتراضاتهم"، ولهذا قال الحافظ الذهبي في "الميزان"[2]: "كان –ذو النون– ممن اُمـتُحن وأُوذي لكونه أتاهم بعلمٍ لم يعهدوه، كان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال في مقامات الأوليـاء، فقال الجهلة: هو زنديق، قال السلمي: لما مات أظلت الطيـور جنازتـه".اهــ ومثلـه في "لسـان الميزان"[3] للحافظ ابن حجر العسقلاني، وهذه الشهادة من هذين الحافظين الكبيرين تدمغ أعداء الصوفية –خصوصاً الحانقين– بالجهل.

6- ذكر التاج السبكي في "طبقات الشافعية"[4]، عن ابن السـمعاني أنـه روى بسـنده أن أبـا القاسم القشيري –صاحب الرسالة القشيرية– حجّ سنة من السنين، وقـد حـجّ في تلـك السـنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض، فأرادوا أن يـتكلم واحد منهم في حرم الله، فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم، فتكلم هو باتفاق منهم.

---

1 **"الرسالة القشيرية"** ص 30 ، **"تاريخ بغداد"** 243/7.

2 **"ميزان الاعتدال"** 253/3.

3 **"لسان الميزان"** 437/2.

4 **"الطبقات الكبرى"** 394/3.

7- ذكر التاج السبكي[1] أيضاً أن الأئمة كانوا يحضرون مجالس أبي نصر عبد الرحيم بن أبي القاسم القشيري، وهو صوفي كأبيه، وممن كان يحضر دروسه في الكلام الإمام أبو إسحاق الشيرازي فقيه العراق، وشيخ الشافعية على الإطلاق، قال السبكي أيضاً: "ومما عظم به أبو نصر أن إمام الحرمين –وهو عصريه- نقل عنه في كتاب "الوصية" من النهاية وهذا فخار لا يعدله شيء."اهـ

8- قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله –وهو من فقهاء المالكية ومشايخ الصوفية- في كتاب "لطائف المنن"[2]: "سمعت الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد –وهو إمامٌ مجتهد- يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وقال أيضاً وأخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر، قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القُشيري- هو والد تقي الدين ابن دقيق العيد- والشيخ مجد الدين الإخميمي والشيخ محيى الدين ابن سراقة والشيخ أبو الحسن الشاذلي، ورسالة القشيري تُقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقالوا: يا سيدي نريد أن نسمع كلامك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم. فقالوا: لا بد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة، والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عزّ الدين –وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه-: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله".اهـ

---

1 "الطبقات الكبرى" 162/7.

2 "لطائف المنن" ص 123.

قلت: كان اجتماع هؤلاء الأعلام في المنصورة سنة 648 هجرية، لحضور المعركة الفاصلة بين المسلمين والصليبين، وقد انتهت بانكسارهم وأسر لويس التاسع ملك فرنسا. ويؤخذ من هذه القصة احترام العلماء –خصوصاً سلطان العلماء وتلميذه ابن دقيق العيد– للصوفية في شخص أبي الحسن الشاذلي زعيم الطائفة ومُجدد رسومها، كما يؤخذ منها اشتراك الصوفية في الواجبات الدينية كالجهاد وغيره مما يعود على المجتمع الإِسلامي بالخير العميم، وإِذا لاحظنا أن الشاذلي حضر تلك المعركة بعد أن كف بصره وجاء يسعى إِليها من الإِسكندرية، علمنا ما كان يأخذ به الصوفية أنفسهم من التمسك بعزائم الأمور، ومَشاق الأشياء، ولا غرو في ذلك فهم أهل عزيمة صادقة، وهمة خارقة، وحزمٍ لا يلين، وجدٍ في العمل والدأب متين، وكأنما عناهم الشاعر بقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

9– كان العلماء الأجلاء يحضرون دروس تاج الدين ابن عطاء الله السكندري، وكانت حلقات دروسه في الأزهر أرحبَ الحلقات، يرتادها أعظم الجماعات، وممن أخذ عنه طريق الشاذلية وتخرج به في التصوف: الإِمام الحافظ المجتهد قاضي القضاة تقي الدين السُبكي وقرأ عليه كتاب "الحكم" له، وقال فيه: إِنه متكلم الصوفية على طريق الشاذلية.

وعلى ذكر كتاب "الحكم" نقول: إِن العلماء اعتنوا به قراءةً وشرحاً ونظماً، فكان يدرس في الأزهر إِلى عهد قريب، وآخر مَنْ أَقرأه شيخنا عالمُ مصر ومفتيها الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي رحمه الله، وكان يدرس أيضاً بجامع القرويين بفاس، وهو أكبر معهد علمي بشمال

أفريقيا، بني قبل الأزهر بخمسين سنة، وحضر فيه أئمة أعلام مثل ابن خلدون والمَقَّري صاحب "نفح الطيب". أما شروح الحكم فلا تكاد تحصى كثرة، ولقد شرحه الشيخ زروق ثلاثين شرحاً، وشرحه العلامة المحقق الشيخ الطيب بن كيران شرحاً مؤيداً بالسُنّة فأعقب كل حكمه بحديث يؤيد معناها، وهو شرحٌ نفيسٌ يقع في مجلدين، ومن شروح الحكم شرح جدنا[1] الإمام، الولي الكبير، والقطب الشهير أبي العباس أحمد بن عجيبة الحسني المتوفى سنة 1224هـ، وهو شرحٌ عظيمٌ يقلُ نظيره بين الشروح على كثرتها.

ونظم الحكم جماعة كثيرون منهم شقيقنا الأكبر الحافظ أبو الفيض السيد أحمد بن الصديق[2]، وفي دائرة المعارف الإسلامية أنّ "الحكم" تُرجمت وشُرحت باللغة التركية وغيرها.

10 – ذكر العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الطالب ابن الحاج في "حاشية المرشد المعين"[3] –وهو منظومة في التوحيد والفقه المالكي والتصوف–: "أن غالب من يشار إليه من علماء الظاهر ممن له تميز وشفوف، ونبوغ في الحفظ والإتقان إنما نال بمخالطة بعض العارفين كابن سريج بمخالطة الجُنيد، والعز ابن عبد السلام بمخالطة أبي الحسن الشاذلي، والتقي بن دقيق العيد بمخالطة أبي العباس المرسي.اهـ

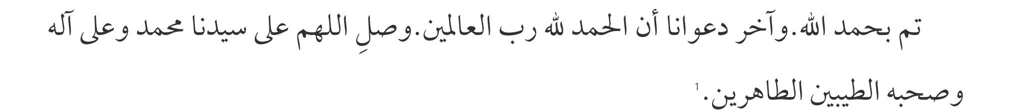
والأدلة كثيرة جداً على أن العلماء كانوا يعتبرون التصوّف من الدين، ويعدون الصوفيّة مِنَ الصفوة المختارين.

---

1 الإمام سيدي أحمد بن عجيبة جد المؤلف رحمه الله من جهة أمه كما ذكره في "سبيل التوفيق" ص 5.

2 سماها "لثم النعم في نظم الحكم" وقد استأنفت شرحها منذ مدة يسر الله إكماله.

3 ص 330 .


تم بحمد الله.وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.وصلِ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.[1]

1 انتهيت من خدمة هذا الكتاب النفيس ليلة الأربعاء 24 صفر عام 1431، بفضل الله ومنته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

تذييل

مقالة

(التصوف الإسلامي بين غلو المنتقدين وجهالة المنتسبين)

اتفق أهلُ التصوف على أنهم لم يريدوا به إلا تحقيق الغاية السامية من الوجود، وهي تصحيح العلاقة بين العبد وخالقه، وذلك عن طريق تخلية النفس من العوالق الشيطانية والعوائق البهيمية، وتحليتها بالمقامات الإحسانية والمراتب العرفانية؛ ومهما تعددت أوصافهم للتصوف واختلفت صيغ تعاريفهم لحده فإنه يدور في الغالب على معنى موحد جمعه العارف بالله سيدي جابر الجازولي رضي الله عنه مؤسس الطريقة الجازولية بقوله فيه: التصوف تهذيب النفس، وتدريبها على الأخلاق السليمة، وردها لأحكام الشريعة.اهـ

وكما بيَّن أهل الحق والإنصاف، فإن علم التصوف مبنيٌّ في أصوله وفروعه على الكتاب والسنة، كما صدقت بذلك كلمة سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه، فمن رامه وسلك طريقه متجاوزا حدَّيه هذين ومستدبرا نصوصهما وآدابهما فعمله مردود غير مقبول وموزور غيرُ مأجور...

هذا، وكما جرت سنة الله في كونه أن يُقيِّد لكل حق أعداء ولكل خير خصوما، فإن علم التصوف ومنذ أن ظهر في تاريخ الإسلام، وطائفة من الناس مُجلبون بخيلهم ورجلهم للتنقيص من قدره وتحقير أهله وتفسيق سالك طريقه، وطائفة أخرى لم يسلم منها هذا العلم الشريف ولا أمِن شرَّها وهي صنف الدخلاء المنتسبين جهلا والسالكين زورا؛ وهما على طرف نقيض،

من حيث الظاهر ولكنهما متآلفان في تشويه صورة هذا الركن الركين في دين الإسلام ومتفقان في تغيير حقيقته بين الأنام.

أما الطائفة الأولى وهي التي أنكرت كل خير فيه، فتمسكت بشُبَهٍ خاسرة وأدلة باردةٍ لا تقوم لدحض حجج أهل الله في طريقهم، ومنها أنهم ادعوا بأن التصوف اسم ناشئ بعد القرون الثلاثة الفاضلة، وهذا أدل دليل على أنه من مبتدعات الدين المذمومة ومنكراته البغيضة، هكذا قالوا وحسبهم هذه الدرجة في الفهم، والرد على هذه الشبهة أسهل من سردها، ذلك أنه علم لدى عقلاء البشرية ونبلاء علماء الإسلام أن العبرة بالمسميات لا بالمسمى، ومن ثمة قالوا "لا مُشَاحَّة في الاصطلاح"...فسمه تصوفا أو زهدا أو إحسانا أو تخلية أو تحلية أو ما شئت من الأسماء، فهذا لا ينكر حقيقته وهي أنه طريق أو علم يبلغ صاحبه مقام الإحسان الذي هو ركن من أركان الدين كما ورد به حديث جبريل الشهير في "الصحيح" عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الشيخ أبو بكر الكلاباذي في "التعرف إلى مذهب التصوف": قولهم في الصوفية: لِمَ سميت الصوفية صوفية؟ قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها. وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز و جل كرامته.

وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وقال قوم: إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.وقال قوم: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف. وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه

عبر عن ظاهر أحوالهم؛ وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخدان وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجساد لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسد جوعة

فلخروجهم عن الأوطان سموا غرباء؛ ولكثرة أسفارهم سموا سياحين، ومن سياحتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار شكفتية؛ والشكفت بلغتهم الغار والكهف.الخ ما قال من كلام نفيس يدلُّ على أن العبرة بطريق القوم لا بالاسم الذي سموا به أو سمي به أوائلهم.

ثم إن علوما كثيرة في الإسلام لم يكن لها أثر فضلا عن اسم في القرون الأولى كعلم "أصول الفقه" وعلم "المصطلح الحديثي" وعلم "الصرف والنحو" وعلم "الفقه" وغير ذلك مما هو من أوجب الواجبات في دين الله، فلو أن هؤلاء قلبوا الحكم على هذه العلوم الأخرى لبطل كل طريق يعبد به الله ويعرف به طريق الله، وهذا لا يقول به عاقل.

هذا على تسليم أنه اسم ظهر بعد القرون الثلاثة، وإلا فالواقع بخلاف ذلك، فقد أثبت التاريخ ظهوره في عهد التابعين رضي الله عنهم من غير إنكار أحدٍ من الصلحاء والعلماء، إذ ثبت عن الأمام الحسن البصري –الملقب بسيد التابعين والمتوفى سنة 110 هجرية عن ثمان وثمانين سنة– أنه قال:رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي.

وهذا الإمام سفيان الثوري –الملقب بأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء.

ومن أغرب ما يحتج به بعضُ المنتقدين قولهم: لو كان التصوف مشروعا لُلُقِّب به وانتسب إليه الصحابة الكرام! والجواب عن هذا كسابقه أيضا كما أن العبرة بالمسمى لا بالأسماء فإن الصحابة رضي الله عنهم أولا فازوا بمقام الصحبة الذي لا يمكن لغيره من المقامات أن تطال شأوه أو تبلغ منزلته، قد حازوا بصحبتهم لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم أعظم تسمية ولقبوا بالصحابة.

ثم جاء بعدهم التابعون ورأوا تبعيتهم لهم أشرف تسمية فلقبوا بالتابعين...

إلى أن ظهرت البدعُ في نهاية المائة الأولى من الهجرة فقامت طائفة لحفظ مقام الإسلام وضبط قواعده وفروعه كأئمة الفقه الأربعة وتسموا بالفقهاء، وطائفةٌ لِحفظ مقام الإيمان وضبط قواعده وفروعه كالإمامين الأشعري والماتريدي وتسموا بأهل الأصول وعلماء العقائد والمتكلمين، وطائفة لحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وسلوكياته كالإمام الجنيد والإمام المُحاسبي وغيرهما وتسموا بالصوفية.

ولقدْ تمسك المنتقدون بِشِبْهِ أدلةٍ لا حجة فيها من قريب ولا من بعيد، ومنها أنهم قالوا بأن الصوفية أنشأوا لأنفسهم لغةُ خاصة وعبروا عن طريقهم وأحوالهم بعبارات لَم يعهدها غيرُهم من أصحاب العلوم الإسلامية الأخرى مما أوقع الحيرة في فهم مرادهم والتوقف في استنباط معاني كلامهم، وهو دليل بارد أيضا وحجة واهية أوهى، إذا علمت أن كلَّ علم من العلوم الإنسانية قد عبر أصحابه عن أصوله وفروعه وجزئياته وكلياته بعبارات خاصة، ربما تشترك في صورة بمصطلحات أخرى، وفي المعنى تختلف اختلافا بينا، ومن ذلك أن الحال عند اللغويين يختلف معناه عند المناطقة وكذا عند الفقهاء وأيضا عند علماء الجرح والتعديل، كما إن للصوفية معنى للحال لا علاقة له بمعانيه عند من سبق.

ثم إن المرجع في تأصيل المصطلح الصوفي راجعٌ في الحقيقة إلى أحوال السالكين والعارفين الذين لم يجدوا ما يعبرون به عن مقاماتهم ومشاهداتهم إلى بما يقرب المعنى من المصطلحات اللغوية الضيقة، ذلك أن المفردات اللغوية محدودة كما وكيفا، والأحوال والأذواق والمشاهدات العرفانية لا حد لها ولا إحاطة بها، فلم يجد أصحاب السلوك إلا شيئا من اللغة يعبرون به عن حالهم فكانت هذه اللغة التي تتضمن أحيانا غموضا وإشكالا، أنكره من حرم التسليم وابتلي بالإنكار والتقبيح عافانا الله من دائه.

يقول القطب الشعراني رحمه الله تعالى: اعلم يا أخي أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق، تعجز الألسنة عنها، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من أحكام، حين عملوا بما علموه من أحكامها.اهـ

فإِنما هي أذواق ومفاهيم، وكشوفات وفتوحات، منحهم الله إِياها، فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العلم علمان: علم في القلب، وفي رواية: علم ثابت في القلب، فذلك العلم النافع. وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على خلقه" [رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإِسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإِسناد صحيح كما في الترغيب والترهيب].

ومما يشير إلى هذا ويدل عليه حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كيف أصبحتَ يا معاذ؟".قال: أصبحتُ مؤمناً بالله تعالى. قال: "إِن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول ؟". قال: يا نبي الله! ما أصبحت صباحاً قط

إِلا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إِلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إِلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إِلى كل أمة جاثية تدعى إِلى كتابها، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إِلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة. قال: "عرفت فالزم" [أخرجه أبو نعيم في الحلية ج1. ص242].

كما أن خصوم الصوفية المنتقدين أنكروا أشياء ضمن علم التصوف ترجع في أغلبها إلى هذين الأصلين، ولنعرج الآنَ على أخطر خصم للتصوف وهم الدخلاء المتحلون السالكون طريقا غير طريقه وهم يظنون أنهم من أهله.

وهذا الإمام الشاطبي يختصر لنا تاريخ ظهور الدخلاء واعتدائهم على حدود هذا العلم وتعديهم طوره، يقول رحمه الله في كتابه "الاعتصام": ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس: وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية لأن كثيرا من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به.

فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم إنما اختصوا باسم التصوف انفرادا به عن أهل البدع، فذكر أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصُّحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمي من يليهم التابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن له شدة عناية من الدين الزهاد والعباد...

قال: ثم ظهرت البدع وادعى كل فريق أن فيهم زهادا وعبادا فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف... هذا معنى كلامه فقد عد هذا اللقب مخصوصا باتباع السنة ومباينة البدعة وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهال ومن لا عبرة به من المدعين للعلم.

وفي غرضي إن فسح الله في المدة وأعانني بفضله ويسر لي الأسباب أن ألخص في طريقة القوم نموذجا يستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي ولا فهم لمقاصد أهلها؟ وتقوَّلوا عليهم ما لم يقولوا به حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى بها محمد صلى الله عليه و سلم. وأعظم من ذلك أنهم يتساهلون في اتباع السنة ويرون اختراع العبادات طريقا للتعبد صحيحا.

وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله، فقد قال الفضيل بن عياض : من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة. وقيل لإبراهيم بن أدهم : إن الله يقول في كتابه (ادعوني أستجب لكم) ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا! فقال: ماتت قلوبكم في عشرة أشياء: أولها عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، والثاني : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، والثالث: ادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته، والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه. والخامس: قلتم نحب الجنة وما تعملون لها إلى آخر الحكاية...

وقال ذو النون المصري: من علامة حب الله متابعة حبيب الله صلى الله عليه و سلم في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته.

وقال: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء الأول: ضعف النية بعمل الآخرة، والثاني: صارت أبدانهم مهيئة لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول الأمل مع قصر الأجل والرابع: آثروا رضاء المخلوقين على رضاء الله. والخامس: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم والسادس: جعلوا زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر مناقبهم...

وقال أبو يزيد البسطامي: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لشقيت واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد ومتابعة العلم هي متابعة السنة لا غيرها.

وروي عنه أنه قال: قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ـ كان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد ـ قال الرواي : فمضينا فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه و سلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

وهذا أصلٌ أصَّله أبو يزيد رحمه الله للقوم: وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة وإن كان ذلك جهلا منه فما ظنك به إذا كان عاملا بالبدعة كفاحا؟

وقال: هممت أن أسأل الله أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء، ثم قلت : كيف يجوز أن أسأل الله هذا؟ ولم يسأله رسول الله صلى الله عليه و سلم فلم أسأله؟ ثم إن الله سبحانه كفاني مؤنة النساء حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أم حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة.

ثم قال الشاطبي: ...وكلامهم في هذا الباب يطول وقد نقلنا عن جملة ممن اشتهر منهم ينيف على الأربعين شيخا جميعهم يشير أو يصرح بأن الابتداع ضلال ـ والسلوك عليه تيه واستعماله رمي في عماية وأنه مناف لطلب النجاة وصاحبه غير محفوظ وموكول إلى نفسه ومطرود عن نيل الحكمة وأن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجموعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها.

ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرق من الفرق الضالة ولا من يميل إلى خلاف السنة وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون وممن يؤخذ عنه الدين أصولا وفروعا، ومن لم يكن كذلك فلا بد من أن يكون فقهيا في دينه بمقدار كفايته.

وهم كانوا أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم بل يأتي ببدع محدثات وأهواء متبعات وينسبها إليهم تأويلا عليهم من قول محتمل أو فعل من قضايا الأحوال أو استمساكا بمصلحة شهد الشرع بإلغائها أو ما أشبه ذلك.

فكثيرا ما ترى المتأخرين ممن يتشبه بهم يرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعا ويحتج بحكايات هي قضايا أحوال إن صحت لم يكن فيها حجة لوجوه عدة ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو واضح في الحق الصريح والاتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه بها.

ولما كان أهل التصوف في طريقهم بالنسبة إلى إجماعهم على أمر كسائر أهل العلوم في علومهم أتيت من كلامهم بما يقوم منه دليل على مدعي السنة وذم البدعة في طريقتهم حتى

يكون دليلا لنا من جهتهم على أهل البدع عموما وعلى المدعين في طريقهم خصوصا وبالله التوفيق.اه كلام الشاطبي الذي لا مزيد عليه...

ولا زال أهل الله من الصوفية الأخيار يصوبون سهام نقدهم إلى الدخلاء في طريقتهم والمتعصبة من منتسبيهم، ولقد أسفر الصبح لذي عينين مبصرتين بدفاعهم عن طريقهم من هؤلاء المرتزقة والمتصوفة الأرزاق، بما لا يدعُ مجالا للشك في أن ما ليس على هدى من الله فهو ضال مضل زائغ عن الهدى والاستقامة.

وفي زماننا هذا كثر المنتسبون الدخلاء وتعددت أوجه الانتساب المزور الذي لا يقوم على أساس دين ولا كتاب ولا سنة، فصار التصوف عند بعض من لا يدين لله بدين مجرد رقص وغناء وموسيقى وانقباع في زوايا لجمع الأموال والشروط، وساعدهم على ذلك أعداء الإسلام، حتى لقد سمعنا صوفيا مسيحيا وصوفيا ملحدا، ومن أعجب ذلك ما سمعته من مثقف متصوف اسما متزندق حالا أن الدعوة إلى الإسلام وطريق الحق في هذا الزمان تكون بالغناء الصوفي! وقد عبر هذا المسكين عن منطق التصوف الباطل المنتحل من طرف كثير من الدخلاء في الزمان المعاصر سلمنا الله من البدع والضلال، وما أحوجنا للتمسك بقول قائلهم رضي الله عنه:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا غناؤك إذ غنى المغنونا

ولا رقص ولا صياح ولا طرب ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا

وأن تـــــرى خاشـــــعا لله مكتئبـــــا   عـــلى ذنوبـــك طـــول الـــدهر محزونـــا

والحمد لله رب العالمين

كتبها الفقير إلى الله

عدنان بن عبد الله زهار

الفهارس

هذا الكتاب

التصوف علم جليل ومقام منيف مكين، بل هو ثلث الدين كما ورد بذلك حديث النبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، وتاركه زاهد في جزء كبير من دينه ومعادي أهله واقع في ثلب أولياء الله وأصفيائه.

كثر حوله القيل والقال، وتعرض له العامة والغوغاء مخالفين آراء المعتمدين من العلماء، فبين الإمام الحجة سيدي عبد الله ابن الصديق حقيقته في هذه الرسالة، وأزاح الإشكال عنه في هذه المقالة، مما يسد أبواب الانتقاد، ويرد دعاوي الاعتراض، وهي التي نغني بها هذه السلسلة المباركة دفاعا عن الحق وأهله، وذيلناها بمقالة لنا تظهر الحق لكل باحث عنه منصف في طلبه.